الفصل الأول
سرقة أمة

الغرض من التمرين هو أن نحصل على بعض الصخور التي سوف تبقى لنا.
وزارة الخارجية، لندن، 1966

إن صراع الشعب ضد السلطة هو صراع الذاكرة ضد النسيان.
ميلان كونديرا

في سجلات المحفوظات التي نسيت من وقت طويل في لندن وفي موريشيوس يوجد فيلم نادر عن مجتمعٍ لشعب راضٍ بما قسم له. والصور الحبيبية، المتراقصة، المليئة بحركة الأطفال وهم يلعبون على الشواطئ الرملية، وبحركة النساء الشابات الفخورات وهن يقدمن أبناءهن المولودين حديثاً من أجل العماد، وبالرجال المنطلقين إلى صيد السمك، وكلابهم تسبح إلى جانبهم، هي صور لمحات من جنة حقيقية. وهناك قرى مزدهرة، ومدرسة، ومستشفى، وكنيسة، وسكة حديدية خفيفة، تقوم كلها في أحضان أعجوبة من الجمال الطبيعي: خيوط من الأرض المرجانية، تطفو في فيروز، كان في ما مضى قمماً من سلسلة جبال غوندوانالاند المعروفة باسم ليميوريا، وغطتها منذ مدة طويلة 21.000 ميل مربع من المحيط الهندي.

خمس وستون من هذه البقع الكلسية، مرتبة في مجموعات، تشكل أرخبيل تشاغوس: جزر سالومون، وأرض بيروس بانهوس المرجانية إلى الشمال، وجزر إغمونت إلى الغرب، و200 ميل إلى الجنوب، أرض مرجانية بشكل إيطاليا صغيرة،

هي 14 ميلاً طولاً و6 أميال عرضاً. هذه هي دييغو غارسيا. خالية من العواصف المدارية الخطيرة وتملك ميناء طبيعياً واسعاً محمياً، وتقع دييغو غارسيا في منتصف الطريق بالضبط تقريباً بين إفريقية وآسيا.

عاش نحو ألفي نسمة على أرخبيل تشاغوس، وكانت أكثريتهم في دييغو غارسيا. وهم أمة لطيفة، مخلوطة النسب، ويعود أصل نسب أجدادهم إلى القرن الثامن عشر حين أحضر الفرنسيون الأرقاء من موزامبيق ومن مدغشقر ليعملوا في مزرعة جوز الهند. وبعد هزيمة نابليون في العام 1815 انتقلت الجزر من الحكم الفرنسي إلى الحكم البريطاني، وفي أقل من عشرين سنة تماماً بعد ذلك ألغي الرق.

واستمر المجتمع التشاغوسي بالنمو مع وصول العمال من الهند بموجب عقود عمل في الأربعينيات من 1840 والخمسينيات من 1850. وكثيرون من أولئك العمال استقروا وتحولوا إلى الكاثوليكية مع السكان المستوطنين المستقرين، ومع مجيء القرن العشرين كانوا قد طوروا لغة متميزة كانت تنويعاً ذا إيقاع من الخليط الفرنسي.

كان يوجد آنئذ ثلاثة مصانع للب جوز الهند المجفف، توفر زيت جوز الهند الذي كان يضيء مصابيح الشوارع في لندن، ومحطة تزويد السفن بالفحم وهي في طريقها إلى أستراليا أوعائدة منها. ومع مجيء الستينيات من 1960 كانت هناك خطط لتشجيع السياحة. وكان العمال يتلقون أجراً صغيراً أو دفعة عينية بسلع من مثل الرز، والزيت، والحليب. ويستكملون ذلك باصطياد السمك الموجود بوفرة في المياه الساحلية، ويزرعون البندورة (الطماطم)، والفلفل الحار، والبقطين، والباذنجان، ويربون الدجاج والبط[1]. وفي أحد الأفلام، الذي التقط صوَرَه المبشرون، يظهر ولد يلعب مع بطة مدجنة ويظهر كلب يغوص من أجل اصطياد السمك. ويصف فيلم مصور من الخمسينيات من 1950 من وزارة المستعمرات السكان، وكأنه يحتفي برؤية كاملة للإمبراطورية في مثل ذلك المكان، يصفهم بأنهم "ولدوا وترعرعوا... في أهدأ وألطف الظروف". وتتحرك آلة التصوير قبالة امرأة تضحك وهي تعلق الملابس لتجف في بستان جوز الهند في حين يلعب أطفالها حولها. هذه المرأة هي تشارليسيا أليكسيس[2].

قابلت تشارليسيا قبل أمس. بعد خمسين عاماً من تصويرها في الفيلم. كانت تجلس في ظل بيتها الصغير، المؤثث تأثيثاً قليلاً متفرقاً على حافة بورت لويس، عاصمة موريشيوس، على بعد أكثر من ألف ميل من وطنها. وسألتها عن أحب ذكرياتها التي شغفت بها في دييغو غارسيا. فأجابت "أوه، كل شيء، إن الإحساس بالرفاهية السعيدة هي أغلى تذكاراتي. كانت أسرتي تستطيع أن تأكل وتشرب ما تشتهي، ولم يعوزنا أي شيء أبداً، لم نشتر أي شيء أبداً، ما عدا الملابس. هل تستطيع أن تتخيل ذلك؟

"لماذا غادرت؟"

"غادرت في العام 1967. كان زوجي مريضاً وقررت أن آخذه إلى بورت لويس لأحصل على المعالجة التي كان يحتاج إليها. وعندما كنا جاهزين للعودة، ذهبنا إلى روجرز أند كومباني – فهم الذين يديرون السفن – وطلبنا تذاكرنا. فقالوا لنا إن لديهم تعليمات بألا يسمحوا لنا بالعودة. وقالوا إن دييغو قد بيعت.

"بيعت؟"

"نعم، ذلك ما قالوه. لقد خدعنا. وحين ننظر إلى الوراء، إلى اليوم السابق لليوم الذي غادرنا فيه، نرى أن الحاكم الإداري كان قد أخبرنا بأن نأخذ معنا الكثير من الفاكهة معنا. لقد خدعونا بطرق عديدة جداً، وحين سارت هذه اللعبة في مسارها، رحّلوا كل الناس، مثل ذلك تماماً. كنت أنا الجيل الرابع. كانت دييغو هي طائري المحلق في كبد السماء وسلب مني. وأرسلت لأعيش في حي قذر فقير، في غرف كانت مخصصة في السابق لتكون حظائر للماعز والخنازير. تلك هي الهيئة التي رأونا فيها".

شيء مشابه حدث لريتا بانكولت. ففي العام 1968، مرضت طفلة من أطفالها الستة مرضاً خطيراً، وكان على ريتا وزوجها أن يأخذوا طفلتهم مع بقية الأسرة إلى موريشيوس. وحين ماتت الطفلة المريضة، ذهبوا، مثلما فعلت تشارليسيا، إلى وكيل النقل البحري في ميناء بورت لويس للحصول على تذاكرهم إلى الوطن، وهناك

ذكر لهم أنهم لن يستطيعوا أن يعودوا أبداً. وقال الوكيل "أنا آسف جداً بالنسبة إليك، يا ريتا، فجزيرتكم قد بيعت". حينئذ، أصيب زوجها الذي كان يجلس إلى جانبها بجلطة، وانشلت ذراعاه وفمه، ومات بعد أيام قليلة.

ومثل جميع النساء التشاغوسيات اللواتي قابلتهن في المنفى في موريشيوس فإن تشارليسيا أليكسيس وريتا بانكولت كانتا امرأتين رائعتين وذلك ببساطة لأنهما استطاعتا الاحتمال والبقاء، لأن ما حدث في جزر تشاغوس كان ممضاً حارقاً، ولا يكاد يبدو قابلاً للتصديق. وفي الحقيقة، فإن اللفظة التي يسمي بها التشاغوسيون صراعهم من أجل العدالة والحرية، وهي المصارعة، ظهرت من الجريمة التي تسمح لنا بأن نلمح كيف أن القوة الكبيرة تعمل خلف مظهرها الخادع المحترم الديمقراطي، وتساعدنا على أن نفهم كم من العالم يدار لمنفعة القوي، وكيف تبرر الحكومات أعمالها بالأكاذيب.

في أثناء الستينيات من 1960 والسبعينيات من 1970 خدعت الحكومات البريطانية، من العمال والمحافظين على حد سواء، السكان وطردتهم بأكملهم من تشاغوس، وهي مستعمرة تابعة بريطانية، وذلك لكي يكون من الممكن إعطاء وطنهم إلى قوة أجنبية، هي الولايات المتحدة، ليكون موقعاً لقاعدة عسكرية. إن هذا العمل من "الخطف الجماعي الشامل"[3] قد نفذ بسرية عالية، جنباً إلى جنب مع المؤامرة التي سبقته. فطوال عقد من الزمان تقريباً، لم يعرف مجلس النواب، ولا مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة أي شيء عن ذلك، ولم يكشف عن ذلك أي صحافي. وحين تأسست القاعدة، أخذت مجموعة من مراسلي "الدفاع" جواً إلى القاعدة من قبل وزارة الدفاع وأرسل المراسلون التقارير كما كان متوقعاً، وكأنه لم يكن إنسان يعيش هناك أبداً، وما زال مذيعو أخبار هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) يشيرون إلى الطيران الأمريكي وهو يطير خارجاً لقصف أفغانستان والعراق من جزيرة دييغو غارسيا "غير المأهولة".

لقد عومل التشاغوسيون مثلما عومل سكان أستراليا المحليون الأصليون في القرن التاسع عشر: فقد اعتبروا أنهم لم يوجدوا. ولم يسرق وطن التشاغوسيين منهم وحسب، بل لقد أخرجوا من التاريخ أيضاً. وإلى عهد قريب، أنكر موقع وزارة

الخارجية على شبكة المعلومات مجرد وجودهم نفسه. إن حفنة فقط من أعضاء مجلس النواب (البرلمان) أشارت إليهم في المناقشات النيابية عن "الأراضي الواقعة ما وراء البحار" المتبقية لبريطانيا. وما من سياسي واحد من الذين كان لسياساتهم التي وضعوها عواقب وحشية على سكان الجزر قد أشار إليهم مطلقاً في مذكراته أو مذكراتها. ولا أعلم عن أي عمل علمي عن السياسة الخارجية البريطانية يصف ما حدث لهم، مع استثناء واحد يدعو إلى الإعجاب، وهو الكتب التي كتبها مارك كيرتس، الذي سماهم "اللاناس"[4].

وبعد أن تخلت بريطانيا عنهم، فإن سبع حكومات بريطانية راقبت مواطنيها المعرضين للخطر، في مكان ناء وهم يعيشون كابوساً في الأكواخ في جزر سيشل، وبشكل رئيسي في موريشيوس، وقد نُبذوا هناك، في الوقت الذي قام فيه الوزراء ومسؤولوهم في لندن بشن حملة من الخداع سارت كل الطريق صعوداً حتى وصلت رئيس الوزراء. وتستمر هذه الفضيحة اليوم – تستمر بعد أن قضت المحكمة العليا في لندن في العام 2000 أن ذلك "الإخراج الذريع" لسكان الجزر من وطنهم كان "إخفاقاً قانونياً وضيعاً".

كان العام هو 1961. وخطا رجلان بخطوات واسعة مقتربين من رصيف الميناء الموجود في دييغو غارسيا، وقد صورهما المبشرون في الفيلم غير واعين لأهمية ضيفيهما الزائرين. كان أحدهما هو العميد البحري غرانثام من أسطول الولايات المتحدة، وكان قائد زمرة مساحة متقدمة أمريكية، وكان هدفها الذي جاءت من أجله هو العثور على جزيرة مناسبة لإنشاء قاعدة عسكرية سوف تسمح لواشنطون أن تهيمن على المحيط الهندي وما وراءه. وطوال السنوات الثلاث التالية تفحص المخططون والمهندسون البريطانيون والأمريكيون مجموعة جزر تشاغوس. وأخيراً اختاروا جزيرة ألدابرا المجاورة. ولكن قرارهم السري تسرب إلى علماء الجمعية الملكية في لندن الذين أصيبوا بالهلع: فألدابرا هذه تمتلك سكاناً فريدين من السلاحف الأرضية العملاقة، وطيور البحر التي تبني أعشاشها وآخر طير لا يطير باق على قيد الحياة في المحيط الهندي، إنها مستودع كنوز الحياة البرية.

وشنت هيئة هذه المؤسسة الهائلة حملة، بالتعاون مع المعهد السميثسوني في واشنطون، ودّعت نتيجة لها وزارة الدفاع والعميد البحري غرانثام إلى خارج الجزيرة. وبهذا سلمت السلحفاة الأرضية العملاقة وسلم آخر طائر لا يطير. ولكن الخيار الثاني لم يسلم. وكان هذا الخيار هو دييغو غارسيا، وهي الجزيرة التي لم تكن فريدة بما فيه الكفاية لتثير انزعاج علماء الطبيعة على الرغم من أنها غنية بالحياة البرية والبحرية.

وأما بالنسبة إلى وجود سكان من البشر في حياة مزدهرة، فهذا لم يشكل "معضلة لا يمكن التغلب عليها" كما نصحت بذلك وزارة الخارجية، لأن الناس يمكن "إخراجهم" و[إعطاء] "العالم الخارجي سيناريو لا يوجد بموجبه سكان دائمون في الأرخبيل". وكان هذا جوهرياً "لأن الاعتراف بوجود سكان دائمين سوف ينطوي على أن هناك سكاناً سوف تتوجب المحافظة على حقوقهم الديمقراطية"[5]. وما كان يستطيع ونستون سميث* في رواية جورج أرويل 1984 أن يصوغ ذلك على نحو أفضل.

في شهر شباط/فبراير 1964، عقد مؤتمر أنجلو – أمريكي سري في لندن، اتخذ فيه القرار الأخير. ومرة أخرى، لم يُحط مجلس النواب(البرلمان) علماً. وفي شهر نيسان/ابريل التالي، طار آنتوني غرينوود، وكان وزير المستعمرات في وزارة هارولد ولسون العمالية، إلى موريشيوس، وكانت آنئذ مستعمرة بريطانية شملت جزر تشاغوس. وقد أوضح غرينوود الشروط المطلوبة لمنح الاستقلال لموريشيوس. وعلى الرغم من قرار الأمم المتحدة رقم 1514، الذي نص على أن جميع سكان المستعمرات لهم الحق غير القابل للتحويل في الاستقلال من دون شروط، فإن غرينوود عرض الاستقلال مع قيود. إن موريشيوس تستطيع أن تكون حرة طالما

* وينستون سميث شخصية البطل في رواية 1984 للكاتب البريطاني جورج أرويل (1903 – 1950). وصار هذا الاسم رمزاً لرجل الشارع والضحية البريئة للألاعيب السياسية. ويعمل سميث في الرواية كاتباً في وزارة الحقيقة، وعمله هو أن يعيد كتابة الوثائق التاريخية كي تتلاءم مع الخط الحالي للحزب، وهو أمر يتغير على أساس يومي! (المترجم)

كانت بريطانيا تستطيع أن تحتفظ بأرخبيل تشاغوس. وكانت الرشوة مجرد 3 ملايين جنيه إسترليني، مع وعد بالقيام بدعم تفضيلات السكر الموريشيوسي.

وهكذا "بيع" وطن تشارليسيا وريتا. وفي 8 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1965، وفي شفق عصر بريطانيا الاستعمارية، خلقت بريطانيا مستعمرة جديدة، وهي أرض المحيط الهندي البريطانية، التي كانت أرضها الرئيسة جزر تشاغوس. لقد كانت خدعة ربما ما كان ليقوى عليها إلا نظام الحكم البريطاني القديم، وذلك لأن المستعمرة الجديدة كانت زيفاً، فهي كيان خلق من أجل الغرض الوحيد وهو تسليمه من أجل استخدامه للقوات العسكرية الأمريكية. وكان ذلك قد صار ممكناً باستخدام السلطات القديمة من امتيازات الملك، وكان هذا الاستخدام ارتداد إلى الحق الإلهي المقدس للملوك.

لقد جيء بأرض المحيط الهندي البريطانية إلى الوجود بأمر مجلس ملكي إداري، وهو قرار لا يوافق عليه مجلس النواب بل الملكة، التي تتصرف بناء على نصيحة – في الواقع، بناء على تعليمات – مجموعة سرية لا تخضع للمساءلة تعرف باسم مجلس الملكة الخاص. وأعضاء هذه الهيئة، المستشارون في المجلس الخاص، يضمون وزراء حاليين وسابقين في الحكومة. وهم يظهرون أمام الملكة في قصر بكنغهام، وقوفاً على شكل نصف دائرة حولها ورؤوسهم منحنية قليلاً، مثل كهان الديانة السلتية القدماء، ولا يجلسون مطلقاً. والبنود المعدة لختم الملكة المطاطي – "الأوامر المجلسية" – تقرأ بصوت عال بالعنوان فقط. ليس هناك أي نقاش، بل تقول الملكة ببساطة، "موافق عليه". هذه حكومة بالتفويض: إنه استخدام المرسوم الملكي من قبل السياسيين الذين يريدون أن يهربوا بشيء ما بطريقة غير ديمقراطية. ومعظم أبناء الشعب البريطاني لم يسمعوا بهذا التفويض. ويستخدمه رؤساء الوزارة البريطانيون لأخذ الأمة إلى حروب غير مقبولة شعبياً، من مثل غزو مصر في العام 1956 وغزو العراق في العام 2003. والحكام المستبدون يفعلون الشيء نفسه، ولكن من دون الشعائرية الغريبة. وقد استخدمت حكومة ولسون هذا التفويض لنفي سكان بأكملهم لكي تسلم بلدهم إلى الأمريكيين. وبعد أربعين

عاماً تقريباً، استخدمته حكومة بليرلإعاقة محاولة المحكمة العليا أن تسمح للسكان بالعودة إلى وطنهم.

وعلى الرغم من أن المسألة لم تكد تروى في الصحافة، فقد وصلت كلمة عن هذه المناورة إلى الأمم المتحدة في نيويورك، وحثت الجمعية العامة على أن تصدر القرار 2066، الذي طلب من الحكومة البريطانية "أن لا تتخذ أي عمل من شأنه أن يمزق أراضي موريشيوس ويخرق وحدتها الإقليمية". وقد أهمل هذا القرار.

وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 1966، وقع اللورد شالفونت، وكان وزيراً في وزارة الخارجية، عقداً في واشنطون يعطي وزارة الدفاع الأمريكية "عقد إيجار" لمدة خمسين عاماً على دييغو غارسيا مع تمديد تلقائي لعشرين سنة. وتكشف وثائق وزارة الخارجية التي رفعت عنها السرية والتي تم الحصول عليها بموجب قانون حرية المعلومات في العام 2005 أن واشنطون أرادت أن يطرد كل السكان، كما قال ذلك أحد المسؤولين، كان يتعين أن تكون الجزر "مكنوسة" و"مطهرة". وكانت هذه العملية موصوفة في ملف سري بأنها "رزمة مرتبة ومعقولة"[6].

وقد أخبرني روبن كوك، الذي لم يكن بعد في العام 1966قد بدأ مسيرته البرلمانية، أخبرني في العام 2004 أن الفضيحة لم ترفع إلى مجلس العموم طوال عقد من الزمان تقريباً لأن أعضاء البرلمان "لم يعرفوا شيئاً عنها. وكان الحفاظ على ذلك السر مدهشاً". لقد كان كذلك حقاً. وفي العام 1974، وهو العام الذي انتخب فيه كوك لأول مرة عضواً في البرلمان – وسأل كتاب مشترك أمريكي – بريطاني صيغ على شكل سؤال وجواب أعد للمسؤولين والسفارات حول العالم، سأل: "هل هناك أي سكان محليين على الجزر؟" وكان الجواب: "لا". وأنكر متحدث باسم وزارة الدفاع أن يكون هذا كذبة، وهو في هذا السياق ربما يكون قد نطق بأغرب كذبة على الإطلاق. فقد قال: "ليس هناك أي شيء في ملفاتنا عن سكان أو حول إخلاء سكان"[7].

لم يكشف مجلس الشيوخ الأمريكي حتى جاء العام 1975، وبعد تشهير واشنطون بوست بالقضية، عن أن الحكومة البريطانية كانت قد "عُوضت" سراً

عن تشاغوس بحسم 14 مليون دولار من سعر غواصة نووية من نوع بولاريس. وهذا نفسه كان حسماً غير قانوني، ولم يُقدم إلى مجلس الشيوخ قطعياً للموافقة عليه، والوثيقة التي وقعها شالفونت قررت كذباً أن الولايات المتحدة لن تدفع أي أجرة مقابل الحصول على "حقوق قاعدة". ولم يكن هناك أي ذكر للسكان[8].

وكانت ليزيت تاليت هي أيضاً في فيلم وزارة المستعمرات. كانت في الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الوقت وهي تتذكر المنتج وهو يقول لها ولصديقاتها: "استمروا بالابتسام أيتها الفتيات!" وقالت وهي تجلس في مطبخها في بورت لويس: "لم نكن نحتاج ليقال لنا ذلك. لقد كنت طفلة سعيدة، لأن جذوري تضرب عميقاً في دييغو. جدة جدتي ولدت في دييغو، وجدتي ولدت هناك، وأمي ولدت هناك، وأنا ولدت هناك. وولدت ستة أطفال. وربما يكون الإنجليز وحدهم هم الذين يستطيعون أن يخرجوا فيلماً يظهر أننا كنا مجتمعاً مستقراً، ثم ينكرون دليلهم هم ويخترعون الكذبة بأننا كنا عمالاً عابرين. وهذا هو السبب الذي لا يستطيعون من أجله أن يقذفوا بنا خارج بيوتنا الخاصة، وكان عليهم أن يرهبونا لنغادر أو يقسرونا على الخروج".

"وكيف أرهبوكم؟"

"لقد حاولوا أن يجيعونا حتى الموت. فسفن الطعام توقفت عن الوصول، وصار كل شيء نادراً. ولم يكن هناك حليب، ولا منتجات ألبان، ولا زيت، ولا سكر، ولا ملح. ولما لم يستطيعوا أن يجيعونا حتى الموت لنخرج من بيوتنا، نشروا الشائعات بأننا سوف نقصف بالقنابل، ثم إنهم تحولوا ضد كلابنا".

والتشاغوسيون يحبون كلابهم، إنهم لا ينفصل بعضهم عن بعض. والبيت التشاغوسي مليء حتى الإسراف بالدرجات والسلالم للأطفال وبالكلاب السمراء اللون الهجينة التي تبصبص بأذنابها وبالجراء. والخطة لقتل كل الكلاب الموجودة على أرض الجزيرة – مع مفهومها الضمني غير الذكي بأن قتل البشر قد يكون هو الأمر التالي – جاء من السير بروس غريتباتش، الذي يحمل وسام فكتوريا الملكي

لطبقة فارس، ووسام القديس ميشيل وجورج، ووسام عضو الإمبراطورية البريطانية، وكان حينها حاكم صاحبة الجلالة لجزر سيشل، وهو الذي كان مسؤولاً عن المستعمرة الجديدة أراضي المحيط الهندي البريطانية.

وقالت ليزيت: "في البداية حاولوا استخدام كرات سمك مسمومة، وقد قتلت قليلاً من الكلاب وتركت الكثير منها في آلام مخيفة. ثم دفعوا إلى رجل ليمشي متجولاً مع عصا كبيرة، وينهال على الكلاب بالضرب حتى تموت، أو يحاول ذلك".

"وفي أي عام كان ذلك؟"

"ربيع العام 1971. كان الجو حاراً. وكان الجنود الأمريكيون قد بدؤوا بالوصول من قبل لبناء القاعدة. ووجهوا ظهور العديد من سياراتهم الكبيرة مقابل الظل المبني من الآجر وكان يُعد فيه جوز الهند، وجمعت مئات من الكلاب وسجنت هناك. ثم قتلت بالغاز الموجه من خلال أنبوب من عوادم السيارات. وكنت تستطيع أن تسمع الكلاب تبكي".

وقذف بأجسام الكلاب، والكثير منها كان ما زال حياً، على رف كان يوضع عليه عادة لب جوز الهند حين كان يطبخ فوق نار من قشور الثمرة تحترق تحته. تلك كانت محرقتهم. وكان الأطفال يصغون إلى ولولة كلابهم وهي تحترق حتى الموت وراقبوا قلة من تلك الكلاب التي حاولت أن تهرب إلى الشاطئ، ولكنها كانت تدفع إلى الخلف لترد إلى اللهيب من مساعدين يساعدون القائمين بالحرق. واحتاج الأمر لأكثر من طن من قشور جوز الهند لإكمال المجزرة.

وقالت ليزيت: "إن الأطفال يرعون كلابهم ويعتزون بها، ولم يبق أي شيء بعد ذلك كما كان. لقد صرنا مجللين بالحزن".

وأخبرني روبن ماردیموتو المحامي الموريشيوسي لسكان الجزر فقال: "إن علاقتك مع حيواناتك الأليفة لابد وأن تكون هي نفسها سواء أكنت تشاغوسياً أم بريطانياً. لقد دمر السكان تدميراً مطلقاً بالمصير نفسه الذي خصت به الكلاب، والكثيرون من السكان أخبروني بأنه كان واضحاً لهم بأنهم إذا أقدموا

على أي اعتراض على ترحيل السكان فسوف يعانون المصير نفسه. وأنه إذا كان ذلك غير كاف، فإن الطائرات العمودية العسكرية الأمريكية والطائرات الأخرى كانت تطير على ارتفاع منخفض فوق الجزيرة وقد أخبروا الناس بأن المكان كله سوف يقصف بالقنابل قريباً جداً. لقد استمعت إلى نساء يبكين، وهن يتذكرن كيف كن يركضن من الضجيج حين كن يرين فجأة طائرة عمودية، وكن يضممن أطفالهن بين أذرعهن وهن جميعاً مذعورات".

وأما الذين رفضوا أن يغادروا فقد استدعوا إلى مكتب الحاكم الإداري وأخبروا بأنهم ليس لديهم أي خيار لأن "إخراجهم" من ديارهم كان "قانونياً" بموجب قوانين المستعمرة الجديدة. وكانت تلك كذبة كبيرة. وقد لاحظ قاض كبير، هو اللورد سيدلي، بعد ثلاثين عاماً أن "الصلاحيات القانونية لحكم الجزر قد [أسيء استخدامها] من أجل الغرض المحرم وهو إخراج السكان من ديارهم وتفريغ الجزيرة منهم"[9].

وقد أخبر الناس المجموعون بأنهم سيحملون على السفن ويرحّلون. وتوجد صورة لهذا الاجتماع. وفيها رجل أبيض يلبس البنطال القصير والجرابات الطويلة ويقف على درجات، ويخاطب حشد الناس، والأطفال يتطلعون إلى الكبار، الذين يبدون بدورهم مذهولين. ويظهر الكثيرون وقد انهاروا تحت تأثير الصدمة، في حين يبدو آخرون وقد ضربهم الأسى.

وقالت ليزيت: "إن القاضي تود هو الذي بلغنا الأخبار. وكان هناك نوع من الإشارة إلى أن ما فعلوه بكلابنا سيفعلونه بنا. كانوا بلا شفقة ولا رحمة".

وأجبرت ليزيت وعائلتها، مع 180 آخرين، على الصعود إلى السفينة نوردفاير، التي كانت تبحر بانتظام بين تشاغوس وموريشيوس، وسيشل، وكانت تنقل لب جوز الهند المجفف وتعود بالإمدادات إلى الجزر. وكان المجيء والذهاب المستمر بهدوء لهذه السفينة قد ساعد على إعطاء التشاغوسيين اسمهم المعروف جيداً وهو الإلويز ويعني "سكان الجزر". وكانت تلك السفينة غير

كافية بشكل ميئوس منه لتكون وسيلة النقل لهذا العدد من الركاب عبر 2500 ميل. ولم يسمح لهم أن يحملوا معهم إلا الحد الأدنى ممن ممتلكاتهم الشخصية، وكان عليهم أن يتركوا خلفهم أثاث بيوتهم الذي اشتروه بمدخراتهم من أعمالهم في المزارع، وأن يتركوا دجاجهم، وبطهم، وحميرهم، وماعزهم الثمينة. ونسل الماعز والحمير التي لم تطلق عليها النار يعيش الآن حياة برية في حدائق الخضروات وفي المقابر التي غطتها الشجيرات.

وقد أرسلت أوامر السير غريتباتش ذات الأسلوب العسكري بالأقمار الاصطناعية من سيشل. "اقتلوا الكلاب وأنقذوا الخيل"، لقد وجه الأمر إلى مارسيل موليني، مدير المزرعة. وهو يصر الآن على أن الخيل تفخر باحتلالها لمكان على ظهر سفينة نوردفاير[10]. وطوال خمسة أيام أطعمت الخيل ولم يطعم الناس. وحشر الرجال كالقطيع على جسر السفينة وكان عليهم أن يقفوا أو أن يجثموا في طقس قاس جداً، وفرض على النساء والأطفال أن يناموا في قاع هيكل السفينة على شحنة من السماد – من ذرق الطيور. وعانى الناس من التقيؤ والإسهال، وأسقطت امرأتان حمليهما.

وقالت ليزيت: "لقد كان الماء أيضاً شحيحاً. وما لا أستطيع أن أنساه هو الخوف واللايقين على مصيري نفسي ومصير عائلتي. وحين وصلنا إلى سيشل، كانت الشرطة بانتظارنا. واقتادونا مشياً صاعدين إلى تلة إلى سجن، وهناك أبقينا في زنازين إلى أن صارت السفينة جاهزة لتأخذنا وتتابع إلى موريشيوس.

"وأظن أننا راودنا بعض الأمل في وعد لنا بأننا في موريشيوس سوف نمنح بيتاً، وقطعة أرض، وحيوانات، ومبلغاً من المال. لم نحصل على شيء. وحين وصلت السفينة إلى موريشيوس كان الشخص العطوف الوحيد هو القبطان الذي سمح لنا أن نمكث في سفينته إلى أن يكون عليه أن يبحر".

وقد أخبرني الرئيس السابق لموريشيوس كسام يوتيم، وهو الذي دافع عن حقوق التشاغوسيين فقال:"لا تستطيع أن تتخيل كم كانوا محتارين ومذعورين.

بعضهم خيم على ظهر السفينة بانتظار السفينة التالية لتعيدهم إلى وطنهم. ولم يكن في استقبالهم أي مسؤول بريطاني لتسهيل طريقهم، على الرغم من أن البريطانيين هم الذين فعلوا هذا بهم وهم أنفسهم مواطنون بريطانيون. لقد كانوا بحاجة إلى المساعدة لدمج أنفسهم في المجتمع الموريشيوسي، وهو مجتمع مختلف جداً عن المجتمع الذي كانوا قد اعتادوا عليه. بالنسبة إليهم، كانت الحياة بسيطة، كانوا يملكون بيوتهم الخاصة، ويزرعون طعامهم الخاص، وكانوا يصطادون السمك من البحر وكانوا يعملون في مزرعة. كانوا قريبين جداً من الطبيعة، أما الحياة في موريشيوس، فكانت بالمقارنة بذلك حياة معقدة. فأنت تخرج لتبحث عن عمل، وهناك بطالة. ماذا يحدث لإنسان لا يمتلك أي مهارات إلى جانب مهارات صيادي السمك؟

"كثيرون منهم لم يروا المرور"، في وطنهم لم يكونوا يفكرون ولو باستخدام دراجة ليذهبوا من مكان إلى آخر. كان أولئك الناس ممن يغنون في طريقهم في الحياة، وهم هنا كانوا يبكون في طريقهم في الحياة، وما زالوا يبكون. إنني أعرف سيدة فقدت طفلين في غضون شهرين أو ثلاثة، ولم تكن قادرة على القيام بعمل جنازتيهما لأنها لم تكن تملك أي مال. لقد أخذ الطفلان من المستشفيات مباشرة إلى المقبرة. تلك السيدة مازالت تنوح".

ليزيت هي تلك السيدة. لقد فقدت جوليس وعمرها ثمانية أعوام، وفقدت ريجيس وعمره عشرة شهور. ومات زوجها بعد ذلك في الحال. إنها امرأة نحيلة كالسلك، ذكية ذكاء حاداً تضع على وجهها قناعاً من الأسى والتصميم. وقالت: "حين رست السفينة لم يكن المسؤولون الموريشيوسيون يعرفون ماذا يفعلون بنا، وأخذونا في نهاية الأمر إلى عقار مهجور للإيواء اسمه بو مارشائد. وأخبرنا الموريشيوسيون الذين قابلناهم أن هذا المكان لم يكن صالحاً للسكن، وكنا نستطيع أن نعرف لماذا. فالماعز التي كانت تجلب من جزيرة رودريغيز كانت قد وضعت في هذه البيوت، وهي غير مزودة بالكهرباء. ولا بالماء، وكانت النفايات والقذر في كل المكان. وإن الصحيح هو أن نقول إننا عوملنا مثلما تعامل الحيوانات.

"كان ذلك في شهر تشرين الثاني/نوفمبر – لقد نسيت العام، وآمل أن أنساه – وكنت مريضة في المستشفى وكان طفلاي كلاهما معي كذلك. لقد ماتا في كانون الثاني/يناير، وبين موتهما ثمانية أيام.

وسألتها: "ومم ماتا؟"

"ماتا من الحزن. حين تلقيت الأخبار، كنت أعرف أن الصغير كان يرضع حليبي، وكان ذلك حليب الحزن. وأما ابن الثامنة فكان قد سمع كل الكلام، ورأى كل الرعب الذي حدث للكلاب. لقد كان يعرف أنه يغادر وطنه".

"وماذا قال الطبيب عنه؟"

"قال الطبيب إنه لا يستطيع أن يعالج الحزن".

"هل لديك صورة لهما؟"

"حين جئت إلى موريشيوس لم تتح لي الفرصة لالتقاط صور لهما. لقد جلست وحسب وبكيت ولم يكن لدي الوقت لالتقاط الصور... ولكن: اسمعني، إنني سأرجع إلى الوطن، كلنا سنرجع إلى الوطن. لسنا هنا لنستدر الشفقة، نحن هنا كي نقاتل".

بعد أن أشارت ريتا بانكولت لجرائها أن تبتعد، رحبت بي للدخول إلى بيتها في منطقة كاسيس من بورت لويس، وهي المنطقة التي يعيش فيها معظم المنفيين التشاغوسيين. لقد ولدت ريتا في جزيرة بيروس بانهوس في العام 1925 وتقول إن "إرادتها ألا تنسى أبداً" حياتها السابقة قد صانت تماسكها منذ أن دُفعت أسرتها إلى ظهر السفينة مع "قبضة من الثياب" مربوطة بكيس مخدة وحصيرة من القش". ومن بين صور العائلة التي أرتني إياها كانت هناك صورة للعائلة الملكية، من حوالي السبعينيات من 1970. وسألتها لماذا احتفظت بهذه الصورة.

وقالت: "هل هذا هو السؤال؟"

"تلك هي الملكة والدوق. ألم تعرفوهما؟"

"لم أفكر فيها. إنها صورة احتفظت بها أم زوجي..".

"وماذا تفعلين بها، ياريتا؟"

"أضعها في المرحاض! لقد سببوا لنا الكثير من المعاناة. سأمزقها مزقاً وأرميها في المرحاض".

وهكذا فعلت.

وقالت: "حين وصلنا إلى موريشيوس، لم يعترف بنا ولو بصفتنا من بني البشر. ولم يكن لدى أطفالي ما يأكلونه، ولذلك ذهبت من بيت إلى بيت في شارع حسن المظهر. وحصلت على عمل بيتي، ولكن السيدة حين اكتشفت إنني كنت من تشاغوس طردتني. وكل ما كنت أستطيع أن أفعله هو أن أبحث في حاويات القمامة في الشوارع عن أكياس بلاستيك تحتوي على خبز بائت. ففي موريشيوس يرمي الموسرون معظم خبزهم. وكنت أستغرق يوماً كاملاً لأجمع وجبة من هذا للأطفال، هذه هي الطريقة التي عشنا بها".

لقد مات أربعة من أطفال ريتا في موريشيوس: الأول كان الطفل الذي جاؤوا به وفيه جرح مصاب بالغرغرينا ليعالج، ثم في سنوات المنفي مات رينو، وأليك، وإيدي.

وسألت: "مم ماتوا؟"

"الأحزان"

لقد أحضرت معي وثيقة بريطانية رسمية لأريها لريتا. وكانت مكتوبة في العام 1968 من قبل أنتوني إفال أوست (وتنطق أورست)، وكان في حينها مستشاراً قانونياً طموحاً صاعداً لوزارة الخارجية والكومنولث، وعمره ستة وعشرون عاماً. وقد كتب في رأس الوثيقة "الإبقاء على الرواية"، ونصحت الوثيقة حكومة ولسون بأن "تحاجج" في "الرواية" بأن التشاغوسيين كانوا "سكاناً متنقلين فقط" وذلك لأن "هذا سوف يدعم حججنا بأن الأراضي ليس فيها سكان محليون أو سكان مستقرون". وحين ترجمت الوثيقة إلى لغة الكريول لتفهمها ريتا، أسقطت ريتا رأسها بين يديها.

وصاحت تقول: "ولكن ذلك غير صحيح! كل أجيالنا مدفونة في دييغو. كيف يستطيع أن يكتب ذلك؟"

ولم أقرأ لها ما كتب أوست عن تمزيق المعارضة. وقد كتب يقول: "نحن قادرون على أن نضع القوانين ونحن نتابع العمل. وقادرون على أن نعامل سكان أرض المحيط الهندي البريطانية بوصفهم لا (ينتمون) لها بأي معنى من المعاني". وكان أوست قد منح لاحقاً وسام القديس ميشيل والقديس جورج في إنعامات صدرت بمناسبة عيد ميلاد الملكة[11].

ومع حلول العام 1975، بدأ التشاغوسيون الموجودون في المنفى يموتون من الفقر الذي فرض عليهم. وكان معظمهم عاطلين عن العمل ولا يملكون فلساً وكانوا يشتركون في مناطق فقيرة مكتظة أو ينامون في العراء. وقد أخبر مسح قامت به لجنة منظمة الأخوة الألويزية في بورت لويس عن ست وعشرين عائلة كانت قد "ماتت معاً في فقر"، وعن تسعة انتحارات، وعن فتيات شابات أرغمن على ممارسة البغاء من أجل مجرد دفع ثمن الطعام. وفي ما يلي نبذة من التقرير:

إليان وميشيل موزا: الأم والطفل انتحرا.

ليون رانغاسامي: أغرقت نفسها لأنها منعت من الذهاب إلى وطنها.

تيرين شياتوكس: انتحرت، لا عمل، ولا سقف يؤويها.

ديزي فولفرين: لم تحصل على طعام لمدة ثلاثة أيام. ماتت من الفقر.

جوسو ومود بابتست: لا سقف يؤويه، ولا طعام يغذيه، فأقدم على الانتحار[12].

هذه مجرد لقطة من المعاناة التي أوقعتها الحكومة البريطانية التي عبرت عن قسوتها عرضاً في رسالة موجهة إلى عضو في البرلمان من مسؤول في وزارة الخارجية. وقد كتب هذا يقول: "على الرغم من أننا لا نمتلك أي معلومات عن وفيات، فإن بعض الوفيات لابد أن تكون حدثت في المسار العادي للأحداث"[13].

تلك كانت كذبة. لقد أرسلت وزارة الخارجية مسؤولاً كبيراً، وهو أي. آر. جي. بروسر، ليحقق، وكان قد أرسل تقريراً مفصلاً حياً بالصور عن ظروف حياة سكان الجزر ونصح بأن "هناك حاجة لفعل شيء ما لهم"[14]. وكان رد فعل الحكومة هو أن تعرض مبلغاً ضئيلاً هو 650.000جنيه إسترليني تعويضاً لجميع السكان. ولكن هذا المبلغ نفسه لم يصل حتى العام 1978، أي بعد خمس سنوات من تاريخ ترحيل آخر ساكن من سكان الجزر، لا بل إن هذا المبلغ نفسه قد أرسل بشكل متردد متذمر. فقد شددت مذكرة وردت من المندوبية العليا البريطانية في بورت لويس تقول فيها "يجب أن نكون قانعين بأننا لم نستطع أن نؤدي التزاماتنا... بشكل أرخص[15].

وفي العام 1975، قدمت مجموعة من الناس اليائسين العريضة التالية إلى المندوبية العليا:

نحن، سكان جزر تشاغوس... قد اقتلعنا من جذورنا من هذه الجزر لأن حكومة موريشيوس باعت الجزر إلى الحكومة البريطانية لبناء قاعدة عسكرية. إن أسلافنا كانوا عبيداً أرقاء على تلك الجزر ولكننا نعرف أننا الوارثون لتلك الجزر. وعلى الرغم من أننا كنا فقراء فنحن لم نكن نموت من الجوع. كنا نعيش أحراراً... وهنا في موريشيوس... لكوننا عبيداً أرقاء صغاراً، لا نجد أحداً يساعدنا. إننا ضائعون، لا نعرف ماذا نفعل[16].

وكان رد المندوبية العليا هو أن ذلك لا علاقة له بالبريطانيين وأن على سكان الجزر أن يوجهوا "مخاوفهم" إلى الحكومة الموريشيوسية، فهي التي حملت المسؤولية عن إعادة توطينهم[17]. وكانت هذه كذبة أخرى، فمعظم التشاغوسيين كانوا مواطنين للمملكة المتحدة وللمستعمرات. ولكن، ومع انكشاف الملفات، كان ذلك الموقف كله جزءاً من الإستراتيجية البريطانية الرسمية نحو سكان الجزر، والتي كانت تقوم على أساس أن "تمنح أقل الحقوق الممكنة مع أقل تصرف رسمي ممكن"[18].

في 16 شهر آذار/مارس من العام 1981، اجتمع مئات من النساء التشاغوسيات في المندوبية العليا البريطانية في بورت لويس، وجلسن هناك وغنين، وطالبن بتعويض مناسب. وبعد أن حاولن عبثاً أن يتحدثن مع المندوب السامي، قمن باحتلال مدخل القاعة، وبدأت ثماني نساء إضراباً عن الطعام في الحدائق المقابلة. وإحداهن كانت تبلغ سبعة وسبعين عاماً من عمرها. قبض على تشارليسيا أليكسيس وضربت، وقد أدت صورة لها في صحيفة وهي تجر إلى الباب الخلفي لعربة شرطة إلى إرسال موجة من الإحراج إلى لندن. وحين كان الإضراب عن الطعام في يومه الثامن عشر، وافق البريطانيون على "محادثات" – لا مع التشاغوسيين، بل مع الحكومة الموريشيوسية.

وفي الأشهر القليلة الأولى من العام 1982، ظهر أن المحادثات بشأن التعويض كانت تحرز تقدماً. وفي 27 آذار/مارس، قبلت مجموعة من أشد سكان الجزر فقراً تسوية "كاملة ونهائية" من 4 ملايين جنيه إسترليني – وهو مبلغ أقل من نصف أدنى التقديرات التي كانوا يستطيعون أن يبقوا بها على قيد الحياة. وأرتني ريتا وثيقة غريبة زائفة رسمية حملت اسمها وبصمة إبهامها. وفي مقابل "تسوية" تصل إلى حوالي 1000 جنيه إسترليني، ومن دون وعي من ريتا لما كانت توافق عليه، "وقعت" عن غير علم منها على اتفاقية تتنازل فيها عن حقوقها في أن تعود إلى تشاغوس.

وقالت: "لا أستطيع أن أقرأ أو أكتب. وقيل لي إنني إذا وقعت على هذا فأنا سأحصل على بعض مساعدة الرعاية في موريشيوس. وأدركت بعد ذلك أن التوقيع قد سمح للحكومة البريطانية أن تقول إنهم عوضوا علينا.وهم لم يعوضوا علينا، إنهم خدعونا. والمال الذين حصلنا عليه لم يبدأ بدفع ديوننا".

وقال محاميهم روبن ماريديموتو: "لقد كان الأمر بأسره هو أنه من غير المناسب، وغير الأخلاقي، والدكتاتوري أن يفرض على التشاغوسيين أن يضعوا بصمات إبهامهم على وثيقة قانونية مكتوبة بالإنجليزية، والتي يجعلون فيها التشاغوسي، الذي لا يقرأ أو يتكلم أي شيء من اللغة الإنجليزية، يتنازل عن حقوقه بصفته إنساناً".

وجمعاً للخداع مع التشويش، فإن بعثة من وزارة الخارجية إلى موريشيوس، قادها السير ليونارد أليسون، أعلنت: "نحن لن نصر على التنازلات". وذلك في الوقت التي تترك فيه بلا تغيير كلاً من شروط التسوية، التي كانت تتطلب التنازل، والوثائق الذي لا يمكن أن تقرأ من أولئك اليائسين المحتاجين أشد الحاجة إلى بعض التعويض[19].

مثل هذه الوسيلة الفجة كان يمكن كذلك أن تكون منتجاً لحرب الفوكلاند. ففي العام 1982، كانت تجري مقارنة معاملة بريطانيا للتشاغوسيين في الأمم المتحدة مع صرفها في ذلك العام لمبلغ بليوني جنيه إسترليني للدفاع عن حقوق سكان جزر الفوكلاند[20]. إن الفوكلاند وتشاغوس كلتاهما كان فيها 2000 نسمة من المواطنين البريطانيين. سكان إحداهما كانوا بيضاً، وسكان الأخرى كانوا سوداً. ففي حين ووجه الغزو الأرجنتيني للفوكلاند بشراسة من القوات البريطانية التي أرسلت إلى مسافة 8000 آلاف ميل لهذا الغرض، فإن الغزو الأمريكي لدييغو غارسيا كان منسجماً في كل تفاصيله مع الحكومة البريطانية التي رتبت هي نفسها لطرد السكان.

في العام 1982، سمت جريدة فايننشال تايمز غزو الفوكلاند "وسيلة غير قانونية وغير أخلاقية للحصول على مطالب إقليمية جيدة"، وهو كذلك "اعتداء" لا ينبغي أن يسمح له بأن "يمر فوق رغبات سكان جزر الفوكلاند"[21]. وقالت الديلي تلغراف، وهي ترجع صدى أقوال مارغريت تاتشر إن "رغبات سكان جزر [الفوكلاند] كانت هي العليا"، وأن هؤلاء "السكان للجزر" يجب ألا "يُخانوا" وأن "المبدأ يملي"، أن الحكومتين البريطانية والأمريكية لا يمكن على الأرجح أن "تكونا غير مباليتين بفرض حكم أجنبي على شعب ليس لديه رغبة في ذلك الحكم"[22]. مثل هذا السخط اللطيف انطبق تماماً على شعب تشاغوس، ولكن لم يُعبَّر عنه أبداً.

وقد سألت مارسيل موليني عن هذا، وهو رجل متورد اللون شكله كشكل بوذا، مرتاح مع مشروب من الجن الزهري اللون، وقميص منتفخ، وقت غروب

الشمس في جو مداري، وقد كان هو آخر مدير للمزرعة في دييغو غارسيا وكانت عائلته قد ملكتها. لقد تحرك في بيئة القبعات الخفيفة للسير بروس غريتباتش، وهو الآن رجل قلق.

قال: "أولاً، دعنا نضع السجل بشكله الصحيح، إن العملية المعروفة باسم عملية التدافع من الذعر – أي إخراج أولئك الناس من الجزر – كانت خطأ اجتماعياً من السير بروس".

"خطأ اجتماعي؟"

"لا أظن أنه عناها. كانت لديه بعض الأفكار الرائعة لتطوير الجزر من أجل السياحة. وهذا هو السبب الذي أراد من أجله أن يخرج الخيل ويجربها في مكان آخر".

وقلت: "نعم، فقد وضع الخيل على الظهر ووضع النساء والأطفال في القاع".

"أوه، لقد فعل ذلك من دون تفكير في الواقع. ولكنها لم تكن جيدة، كانت مزعجة في الحقيقة. ففي إعطاء الخيل أولوية، كان علينا أن نضع اسطبلات من خشب على الظهر، ويا إلهي، حين تمايلت السفينة كان هناك روث من الخيل في كل مكان، كان مقرفاً في الواقع".

"وما الذي أثار قرفك غير ذلك؟"

"الاختراع في لندن الذي يقول إن التشاغوسيين كانوا مجرد عمال بعقود عمل، وكان يمكن إعادتهم إلى أماكن لم يأتوا منها أبداً. إن الرجل الذي كان يعتني لي بقطيعي من المواشي في دييغو كان هو الجيل الخامس".

"لماذا فعلوها؟"

"دعنا نواجه الأمر: هل يهتم بهذا أي شخص من هؤلاء الأولاد الموجودين في وزارة المستعمرات؟ توافق معي... لديك مستوى معيشتك وتحافظ عليه... ومشروبك الجن الزهري اللون عند الغذاء..".

"وهكذا فالناس كانوا مجرد (محليّين)".

"المحليون، نعم. تلك كانت حقيقة الحياة الاستعمارية، سواء أكنت في كينيا، أو أوغندا، أو سيشل، ومن ذا الذي اهتم بخصوص تشاغوس؟ أوه، اقذف بهم في سفينة ليس إلا، وأنت تعرف. ذلك كان هو الموقف. كان جحيماً. أحد الشباب قفز من فوق السطح إلى موته. لقد قرأت عن سفن العبيد التي ذهبت من إفريقية إلى أمريكا. كان هذا هو الشيء نفسه. وكان الفرق الوحيد هو عدم وجود السلاسل. لم أستطيع أن أخرج الناس من ذهني، ما زلت لا أستطيع. وفي سنواتهم الأولى القليلة في موريشيوس، ذهبت لأراهم. لم يكن لديهم ماء ولا وسائل صحية عامة، ولم يكن أطفالهم يملكون الملابس، لقد بدوا وكأنهم مرغوا بالرماد والتراب".

"تبدو مفعماً بالأسى".

"إني كذلك".

"وعلام تحزن أكثر الحزن؟"

"أين يبدأ المرء؟ التخلص من الكلاب، أنا الذي فعلت ذلك للسير بروس. لم يكن الأمر لهواً. كان لدينا حوالي ثمانمائة كلب في دييغو. وأنا آسف للقول إني حاولت تسميمها. استخدمت مادة الستركنين السامة، التي كان الأمريكيون يستخدمونها في وطنهم لتسميم ذئاب البراري. وفي اللحظة التي كنت أرى فيها أن السم قد بدأ يؤثر كنت أطلق النار على الكلاب في رؤوسها. وساعد الأمريكيون في ذلك، ولكن فصيلة منا لم تستطع أن تطلق النار على كل الكلاب وتقتلها. وهكذا فقد تحدثت مع المسؤولين الطبيين الأمريكيين، الذين اقترحوا أول أكسيد الفحم. وهذا ما خنقها. ثم حرقنا الكلاب، وكانت ثمانمائة أو تسعمائة. ولم نفعل ذلك بالقطط... لم نستطع أن نمسك بها".

"وفي الوقت الذي كان كل هذا يجري، هل عبر أي شخص عن أي أسف؟"

"حسناً، عمي، وهو الذي كان يملك المزرعة، كان متضايقاً جداً من الأمر كله".

"متضايق؟"

"لم يكن سعيداً بالثمن الذي قبضه للمزرعة".

"ماذا ترى في التعويض الذي حصل عليه الناس؟"

"هل تسمي ذلك تعويضاً؟ وافق معي الآن، إن هذه الأمور يجب أن تعمل على النحو المناسب، لا أن نفرِّش الشيء تحت السجادة".

"هل تتذكر الأسطول الملكي وهو يذهب لإنقاذ سكان جزر الفوكلاند؟"

"ها! كم مرة فكرت في ذلك".

"ماذا كان الفرق؟"

"أما تستطيع أن تسمعها، أي الملكة، في إذاعتها في عيد الميلاد وإذاعات يوم مولدها؟ فهي تقول: (شعبي)". ولذلك فأنت تذهب لتنقذ ألفين من شعبها في الفوكلاند، وترفس ألفين من شعبها بعيداً في تشاغوس".

"ما هو الفرق؟"

"لا أحب أن أجيب عن ذلك".

"لم لا؟"

"أنا أحب البريطانيين".

"تابع، وأجب".

"أظن أننا كلينا نعرف الجواب".

أوليفيير بانكولت هو الابن الباقي لريتا على قيد الحياة. في الفجر في كل صباح يلبس بدلة عمله الخضراء وينطلق على دراجة هوائية نازلاً في مسار حجري قذر ماراً بأكواخ الصفيح المموج التي يحييه منها الناس تحية حارة. في أثناء النهار يعمل كهربائياً مع مجلس المدينة في بورت لويس. وفي المساء، ومن مبنى صغير غير سكني تحت لافتة مكتوبة باليد، "جماعة لاجئي تشاغوس"، يأخذ أوليفيير قضية

المصير، قضية المصارعة، إلى العالم. ومن بين أربعة آلاف من التشاغوسيين في موريشيوس فإن أوليفيير هو الوحيد الذي يتحدث الإنجليزية بطلاقة. وهو مثال الكمال في الصبر والتلطف، ويقود مجتمعاً تسيطر عليه الأمهات الشيخات اللواتي يعتزمن الذهاب إلى الوطن قبل أن يمتن.

وحين تدخل المبنى الصغير ترى هناك "صوة جنة"، كما يسميها أوليفيير. وهي صورة كبيرة متوهجة، بحجم الجدار، خضراء وناضرة كأنها حلم (وهي ليست مختلفة عن السجادات الجدارية الكبيرة المعلقة في بيوت اللاجئين الفلسطينيين). وفوقها صور لأولفيير مع نلسون مانديلا ولأولفيير مع البابا الراحل. وقال أوليفيير: "إننا نقارن صراعنا مع صراع نلسون مانديلا. لقد مر تقريباً أربعون عاماً منذ أن سرقوا بلادنا وسجنونا هنا. نحن جميعنا مثل مانديلا.

ويحتوي المبنى الصغير على حاسوب، ويقول أوليفيير: "مراسلي إلى العالم. فنحن نرسل بياناتنا الصحفية من هنا".

"هل يقوم أحد بنشرها؟"

"أحياناً، ولكني أحافظ على إرسالها على كل حال، وأستمر في شرح من نكون نحن، وماذا فُعل بنا. وأتذكر كلمات مارتن لوثر كينغ: بهذا الإيمان سنكون قادرين على أن ننحت من جبل اليأس، حجراً من الأمل".

"هل تغضب؟"

"نعم، أنا أغضب حين أفكر في الأمريكيين على أرض دييغو مع قاذفاتهم القادمة على مدرج بطول ميلين، وبرك مسابحهم، وباراتهم، وحفلاتهم في الهواء الطلق، ومسابقاتهم لملكة جمال دييغو غارسيا".

"وما الذي يزعجك أكثر إزعاج؟"

"الأكذوبة التي تزعم أننا لم نوجد".

وكذبة وزارة الدفاع في العام 1975 التي تقول: "ليس هناك أي شيء في ملفاتنا عن سكان [تشاغوس] أو عن إجلاء للسكان" هي كذبة لها شناعة خاصة. وذلك لأن الحقيقة هي أنه كان هناك كل شيء في ملفاتهم[23].

في التسعينيات من 1990 اتخذ صراع سكان الجزر منعطفاً مؤثراً دراماتيكياً حين اكتُشف كنز دفين من الوثائق الرسمية التي أزيحت عنها السرية في المحفوظات الوطنية في كيو في جنوب غرب لندن. وقد قدّمَت هذه الوثائق قصة المؤامرة بين حكومتين لتنفذا وفق كلمات المادة 7 من قانون محكمة الجنايات الدولية "إخراج السكان أو نقلهم بالقوة... وهي جريمة ضد الإنسانية"[24].

وبالنسبة إلى المتآمرين كانت السريّة والخداع حيويين. ففي شهر أيار/مايو من العام 1964، نبهت "مذكرة إرشادية" من وزارة الخارجية إلى أن "هذه الخطوات [إجلاء سكان تشاغوس] يجب أن توقت توقيتاً لا يجتذب إلا أقل انتباه ممكن ويجب أن يكون له بعض الغطاء المنطقي أنّى يكون ذلك ممكناً وأن يكون مقدراً سلفاً [وإلا] فإن تلك الخطوات سوف تثير الشكوك حول الغرض منها"[25]. وكان "الغطاء المنطقي" اختراع أرض المحيط الهندي البريطانية، التي سوف تقدم إلى العالم بصفتها أرضاً مأهولة "مؤقتاً" من "عمال متعاقدين" من الذين يمكن "إعادتهم" إلى موريشيوس وسيشل. وقد سمى مسؤول كبير في وزارة الخارجية، وهو تي. سي. دي جيروم هذا بأنه "حل لمشكلة السكان".

وفي 28 تموز/يوليو من العام 1965، كتب جيروم إلى الممثل البريطاني في الأمم المتحدة، وهو اف. دي. دبليو. براون، يوجهه ليكذب على الجمعية العامة بأن جزر تشاغوس لم تكن "مأهولة حين حصلت عليها المملكة المتحدة لأول مرة". وبراون هذا فعل ذلك وكذب في 16 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1965. وأساء أيضا تمثيل السكان حين وصفهم بأنهم كانوا "عمالاً من موريشيوس وسيشل" "ولا تنطبق عليهم" التزامات بريطانيا بموجب ميثاق الأمم المتحدة، وكذب في أن "ترتيبات إدارية جديدة" قد تم "إعدادها بحرية مع... الممثلين المنتخبين من الشعب صاحب العلاقة"[26].

وفي مذكرة سرية، أوضح الحقيقة مسؤول في وزارة المستعمرات هو كي. دبليو. اس. ماك كنيزي. وقد كتب يقول: "إن أحد الأشياء التي نود أن نعملها في الأرض الجديدة هو أن نحول المقيمين الموجودين إلى مقيمين لمدة إقامة قصيرة ومؤقتين وذلك بإعطائهم رخص هجرة مؤقتة، تصفهم بأنهم سكان من موريشيوس أو سيشل"[27].

ولدى قراءة الملفات، يتضح بجلاء أن الحكومة البريطانية فعلت مثلما طلبت منها واشنطون. وقد كتب مسؤول في وزارة الخارجية يقول، إن الإجلاء الجماعي "كان قد جُعل فعلياً شرطاً للاتفاقية [مع الأمريكيين] حين تفاوضنا فيها في العام 1965". وكتب مسؤول آخر، هو آي. ماك كلوني يقول: "أنا أشتمّ رائحة مشكلة مقلقة هنا... لا أرى لماذا لا يريد الأمريكيون أن يسمحوا لبعض السكان بأن يمكثوا؟ ألا يمكن أن يكونوا مفيدين؟"[28]

وفي البعثة البريطانية في الأمم المتحدة في نيويورك، اغتاظ سي. ئي. كينغ بشأن "مخاطر الدعاية الضارة". وكتب إلى لندن يقول: سيكون من المرغوب فيه، في أي دعاية ضرورية عن المنشآت المقترحة، تجنب استخدام كلمة "قاعدة" إلى أبعد حد ممكن. وفي وزارة الخارجية نبه جيه. اتش لامبرت إلى أنه "إذا صار الاهتمام بـ [التشاغوسيين] اهتماماً قوياً بما فيه الكفاية، فإن الصحافة قد تكتشف تماماً أنهم موجودون وبأعداد هامة"[29].

وكان المسؤولون يدركون سراً فيما بينهم، أنهم كانوا عرضة للاتهام "بتهم عدم الأمانة" لأنهم كانوا يخططون "لتزييف السجلات". وعبر أحدهم عن المخاوف "القديمة الطراز" بشأن قول "الكذبات السخيفة". ولكن "الكذبات السخيفة" نفسها، مهما تكن كاذبة، لا تكاد تصف كذبة الرسالة المرسلة من السير بروس غريتباتش إلى وزارة الخارجية، وفي رسالته تلك وصف أولئك الذين لم يكن قادراً على أن يخدعهم ليغادروا بأنهم "جميعهم كانوا متعاقدين من [الذين] انتهت عقودهم ومارسوا حقهم في مغادرة تشاغوس"[30].

وبدءاً من العام 1965، فإن التعليمات الصادرة من وزارة الخارجية ووزارة علاقات الكومنولث، مثلما كانت تدعى آنئذ، إلى السفارات البريطانية حول

العالم، شددت على الحاجة إلى تجنب كل إشارة إلى "سكان دائمين". أما أنطوني أوست، المستشار القانوني الشاب لوزارة الخارجية الذي سبق له أن كتب يقول: "نحن قادرون على أن نضع القوانين ونحن نتابع عملنا"، فقد نصح بأن على الخط الرسمي أن "يديم رواية أن سكان تشاغوس ليسوا سكاناً دائمين أو شبه دائمين"[31].

ودار حوار بين هؤلاء المسؤولين المعينين، والواعين لسلطتهم وعياً واضحاً. وعلق أحدهم "[على دييغو غارسيا] بالقول: هناك سكان مدنيون. ولكن، من الناحية العملية، فأنا أنصح بسياسة (الإغفال الهادئ)" ـ وبكلمات أخرى، دعونا ننسى هذا الشأن إلى أن تتحدانا الأمم المتحدة بشأنه[32]: إن خطورة هذه الملاحظة الصادرة من فارس على ما يظهر واضحة للعيان حين توضع في مقابل المادة 73 من ميثاق الأمم المتحدة، وهو الميثاق الذي يلزم السلطات الاستعمارية مثل بريطانيا لا بحماية حقوق الإنسان لشعوبهم المستعمرة وحسب، بل يلزمها بالقيام "بتطوير الحكم الذاتي" أيضاً. إن هذا الأمر يسمى "الأمانة المقدسة"[33]. وكتب اتش. جي. دارون يقول: "هذا غير مرض تماماً... نحن نقترح أن نمنح شهادات لسكان الجزر، مزيفة تقريباً، بوصفهم ينتمون إلى مكان آخر. وكل هذا يبدو صعباً على التصالح مع (الأمانة المقدسة) في المادة 73"[34].

وربما كانت هذه المشكلة في ذهن إلينور إمري، رئيسة إدارة الأراضي المستعمرة في المحيط الهادئ في وزارة الخارجية، التي كتبت الرسالة التالية "السرية الشخصية" إلى السير بروس غريتباتش، وقالت: "نحن سنستمر في المحاولة وقول أقل ما يمكن لتجنب إحراج الإدارة الأمريكية... ونحن لا نرغب لهذه المسألة أن تصير معروفة معرفة عامة وأن يعرف أن بعض السكان قد عاشوا في دييغو غارسيا طوال جيلين على الأقل، ويمكن لهم لهذا السبب أن يعتبروا (منتمين) إليها. وكتبت تقول: لذلك، فإن وزارة الخارجية ستنصح وزراء الحكومة بأن يقولوا: "هناك فقط عدد صغير من العمال المتعاقدين وهم من موريشيوس وسيشل يقومون بالعمل في مزارع لب جوز الهند المجفف" وإنه "إذا وجه [عضو في البرلمان] سؤالاً عما سيحدث لهؤلاء العمال المتعاقدين في حالة إقامة قاعدة على الجزيرة، فنحن نأمل أن ذلك السؤال، في الوقت الحاضر، يمكن أن يزاح جانباً بوصفه سؤالاً افتراضياً".[35]

ما تكشفه هذه الملفات هو آثار متتابعة من الأكاذيب، نعم، ولكنه أيضاً موقف مستبد من الوحشية والاحتقار. في 24 آب/أغسطس من العام 1966، كتب السير بول غور- بوث، وهو الوكيل الدائم في وزارة الخارجية يقول: "يجب علينا بالتأكيد أن نكون خشنين جداً في هذا الموضوع. والغرض من التمرين هو أن نحصل على بعض الصخور التي ستبقى لنا. لن يكون هناك أي سكان محليين باستثناء طائر نورس البحار الذي لم يحصل بعد على لجنة (لجنة مكانة النساء لا تغطي حقوق الطيور)" (والتوكيد في الأصل).

وفي أسفل الصفحة ملاحظة هامة مكتوبة بخط اليد، وكتبها دي, إي, غرينهل، وهو مسؤول كبير آخر، صار هو البارون غرينهل اف هارو. كتب يقول: "من سوء الطالع، هناك مع الطيور بعض طرزانات قلة أو بعض المساعدين الذين تعتبر أصولهم غامضة، وهم الذين يجري بكل أمل فرضهم على موريشيوس...الخ. وحين يكون ذلك قد تم، فإنني أوافق على أننا يجب أن نكون خشنين جداً"[36].

وفي مطالع السبعينيات من العام 1970، كان أندرو ستوارت رئيس إدارة هونغ كونغ والمحيط الهندي في وزارة الخارجية، وهو منصب عال جداً، وفي العام 1973، اقترح أن يذهب هو إلى دييغو غارسيا ليرى بنفسه أكان السكان "مؤقتين أم دائمين". وبعد أكثر من ثلاثين سنة، وفي شهر آب/أغسطس من العام 2004، تقابلنا في لندن وسألته ماذا وجد هناك؟

فقال: "وجدت أن ما كان هناك هو مجتمع منتظم... كنيسة ومحلات تجارية وكل ذلك، ورفعت تقريراً بأن هناك مجتمعاً دائماً".

"وماذا حدث بعدئذ؟"

"افترضت أنهم عوضوا تعويضاً مناسباً..".

"وحين تنظر الآن إلى الوثائق الرسمية، فلديك هنا بعض زملائك يتحدثون عن الحاجة إلى بعض الصخور والتخلص من حفنة من الطرزانات وبعض المساعدين..".

"في الواقع، أنا عرفت الشخص الذي تشير إليه، وأكن له أعظم الاحترام، وهو الآن متوفى. وأنا متأكد من أنه لو كان لديه أي دليل على أن ملاحظاته العابرة كانت ستصير عامة لما كتبها أبداً... وأنت تعرف، أن الناس يضعون الأشياء في محاضر في الأوراق الرسمية وهم لا يعنونها في الحقيقة".

"حقيقي؟... هل سبق لأي واحد من زملائك أن قال إن ما كان يجري لتشاغوس كان خطأ؟"

"لا، لا أعتقد ذلك... كان هناك حاجة في الغرب إلى قاعدة في المحيط الهندي في حالة ما بعد فيتنام. أنا لم أشعر أن ذلك كان خطأ، على شرط أن يكون السكان قد عوضوا تعويضاً مناسباً. هل تجد ذلك صادماً؟"

"بعد أن تحدثت مع العديدين من سكان تشاغوس الذين يعانون معاناة مرعبة، أود القول إنني أجدها صادمة، ولكنني لست متفاجئاً. إنها الكيفية التي تعمل بها القوة غير الديمقراطية، أليس كذلك؟"

وقال: "على افتراض... آسف، أنا أستجوبك... على افتراض أنهم قد أعطوا جنة مدارية ليعيشوا فيها، ونقوداً ليعيشوا منها، وأن الشيء كله كان قد نفذ تنفيذاً حساساً وكريماً، فهل تنظر إلى ذلك بأنه صادم؟"

"حسناً، سيكون الأمر متصلاً بالتشاغوسيين، ولكنهم في الحقيقة كانوا مستعدين أن يعيشوا في الجزر الخارجية وهي بيروس بانهوس، وسالومون، ومنعوا من الذهاب إلى هناك، وهم ما زالوا ممنوعين من الذهاب إلى هناك، على الرغم من أن هذه الجزر على بعد مائتي ميل من دييغو غارسيا. لقد عرضوا ذلك حلاً ولكنهم حرموا منه".

"كان الأمريكيون سيرون ذلك غير مقبول".

"ولكن هذه الأرض كانت بريطانية، وكان هؤلاء الناس رعايا بريطانيين. فلماذا يجب توقيف حقوقهم الأساسية لأن الأمريكيين وجدوا شيئاً ما غير مقبول؟

"كانت هناك حاجات دفاعية لها الأوليّة المهيمنة... وكثير من جنون العظمة في الحرب الباردة".

"في هذه الأيام ليس هناك حرب باردة، ولا يوجد اتحاد سوفيتي، وهذه قاعدة أمريكية بعيدة جداً عن أمريكا، ومع ذلك فإن الحكومة البريطانية ما تزال تضع المصالح الأمريكية فوق حقوق شعبها. وأنت كنت واحداً من السفراء البريطانيين المتقاعدين الذين وقعوا حديثاً رسالة معارضة لحرب العراق. إذا كانت مهاجمة العراق خطأ، فلماذا لم تكن حادثة تشاغوس خطأ؟"

"مهاجمة العراق كانت حماقة. أنا لست ضد الولايات المتحدة بوصفها شرطي العالم، ولكن يجب عليهم أن يكونوا أكثر إدراكاً بشأن ذلك. وبالنسبة إلى العراق، فأنا لم أكن أصدر عليه حكماً أخلاقياً. لقد كان حكماً عملانياً (براغمانياً) عن عدم الحكمة في عملهم".

"هل تعتقد أن الأخلاقيات تلعب دوراً في السياسة الخارجية؟"

"أوه. نعم، بالتأكيد. وأنا أعني، إذا لم يكن هناك قواعد أخلاقية لما تفعله، فإنك آنئذ لا تختلف عن الحكام المستبدين".

"لابد أن تشاغوس زلقت بذلك المبدأ".

"لماذا تستمر في إعادتي إلى الحكم الأخلاقي؟"

"إن ميثاق الأمم المتحدة يقول إن بريطانيا أمسكت بما تسميه "الأمانة المقدسة" نحو العناية بشعب تشاغوس..".

"أنا آسف، فأنت مستمر في العودة بي إلى النقطة نفسها. أنا شخصياً لا أستخدم كلمة مثل الأمانة المقدسة".

"ميثاق الأمم المتحدة يستعملها، وبريطانيا موقعة عليه".

"أعرف ذلك، ولكن حين يبدأ الناس في الحديث عن الأمانة المقدسة، أنا أتوقف عن الكلام. أنا قضيت حياتي الاستعمارية كلها أعمل من أجل الاستقلال أولاً لأوغندا،

ثم لجزر سيشل ولجزر هيبريديز الغربية وتلك كانت أمانتي المقدسة... طبعاً، أنا أدرك أن لديك جدول أعمال وأن من غير المرجح أن تعطي قدراً ضخماً من القوة لوجهة نظري".

"جدول الأعمال الوحيد هنا هو جدول أعمال عدد من الحكومات البريطانية التي سبّب سلوكها مثل هذه المعاناة للناس. ولولا ذلك، لما كنت أوجه إليك هذه الأسئلة. نحن لا نحب أن تُفعل تلك المعاناة بنا، أليس كذلك؟"

"لا. طبعاً لا نحب".

وصعد الإخفاء إلى قمة الحكومة. ففي 5 و8 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1965، كتب وزير المستعمرات، وهو أنطوني غرينوود، محضرين سريين لرئيس الوزراء هارولد ولسون، ووصف فيهما مشكلة "سكان عددهم ألف نسمة" يعيشون في تشاغوس. واستحث موافقة الملكة على وجه السرعة "على مرسوم ملكي بمشورة المجلس الخاص يفصل الجزر" لكي يتم إعلان المستعمرة الجديدة "ونحن سنكون قادرين على أن نقدم إلى الأمم المتحدة أمراً واقعاً"[37].

وهكذا فحين أعطى رئيس الوزراء هارولد ولسون الضوء الأخضر للمرسوم الملكي بمشورة المجلس الخاص، كان مدركاً أنه كان يلغي الحقوق القانونية والإنسانية لمواطنين بريطانيين. كان يسرق بلدهم ويتجاهل المخاطر الناجمة عن "رمي أناس غير قابلين للتوظيف في موريشيوس المكتظة بالسكان"، مثلما حذر من ذلك مسؤول شريف في وزارة الخارجية، دع عنك ذكر المعاناة التي لا يحيط بها تقدير والتي يؤدي إليها بالتأكيد ذلك العمل[38].

والذي تولى المسؤولية عن الإخفاء كان هو وزير الخارجية، مايكل ستيوارت، وهو رجل هادئ، أشيب الشعر له مظهر كمظهر الجد. وقد كتب سراً إلى ولسون في 25 تموز/يوليو من العام 1968، واقترح أن تكذب الحكومة على العالم في أنه لم يكن هناك "أي سكان محليين" على الرغم من أنه قد وقع على مذكرة موزعة في الوزارة قالت: "مع أي تجوز ومطٍ للغة الإنجليزية، كان هناك سكان محليون وكانت وزارة الخارجية تعرف بذلك"[39].

ولم تكن وزارة الخارجية تعلم وحسب، بل كانت مشغولة بإعداد الكيفية التي سيكذب بها الوزراء في هذا الموضوع. وقالت إحدى المذكرات: "نحن لا نرغب في أن يصير الموضوع معروفاً معرفة عامة، وأن بعض السكان [كانوا] (منتمين) إلى الجزر. ولذلك فسوف ننصح الوزراء، وهم يعالجون أسئلة إضافية عن كون دييغو غارسيا مأهولة، أن يقولوا هناك عدد صغير فقط من العمال المتعاقدين من سيشل وموريشيوس المرتبطين بالعمل في مزارع لب جوز الهند المجفف في الجزيرة. وهو ما يكون اقتصاداً في قول الحقيقة، أو، بتعبير آخر، الكذب"[40].

وكتب ستيوارت في رسالته إلى ولسون يقول: "لقد درس المسؤولون بدقة إمكانية إعطائهم [التشاغوسين] بعض عناصر من الاختيار، ولكنهم نصحوا بأن هذا سيبدو غير قابل للتطبيق عملياً بالكلية"[41].

قارن كلماته مع كلمات ممثل بريطانيا في الأمم المتحدة اف. دي. دبليو. براون، إلى الجمعية العامة، التي يقول فيها إن "الترتيبات الإدارية الجديدة" من أجل تشاغوس قد تم "إعدادها بحرية مع... ممثلين منتخبين من الشعب صاحب العلاقة". وقد كتب ستيوارت كذلك أنه "سيكون من المساعد إذا كنا نستطيع أن نعرض أي تحرك بصفته تغييراً في التوظيف لعمال متعاقدين... بدلاً من أن يكون بصفته إعادة توطين سكان"[42].

وفي 26 نيسان/ابريل من العام 1969، كتب السكرتير الخاص لولسون إلى ستيوارت: إن رئيس الوزراء وافق على "الخطة"[43]. واستمرت سبع حكومات بريطانية متعاقبة – ولنستحضر التعبير الذي لا ينسى للمستشار القانوني لوزارة الخارجية في العام 1969 في المحافظة على الرواية[44].

لقد قرأ ريتشارد جيفورد كل هذه الوثائق منذ أن زار موريشيوس لأول مرة في عطلة له في العام 1997، وصار مدركاً لمحنة التشاغوسيين. ومنذ ذلك الوقت، صار محاميهم الشجاع الذي لا يكل. وقد قال لي: "لقد كان مثيراً للصدمة تماماً أن نجد أنه كانت هناك سياسة تجري صياغتها في خرق فاضح للقانون الدولي. وتظهر

الوثائق أنها كانت قد تقررت على أعلى مستوى، من رئيس الوزراء، وبشكل أكثر تخصيصاً من هارولد ولسون. لقد كان يعرف معرفة جيدة أنه كان هناك سكان وأنهم كانوا سيُرحلون. وهذه سياسة صنعت تقريباً على ظهر مغلف، بمعنى على عجل وبلا ترو. ليس هناك أي مدخلات ديمقراطية، لم يطرح أحد الأسئلة، ولم يطرق أحد الباب، ولم يكن هناك أحد ليمثل مصالح سكان الجزر. إنهم لم يوجدوا بصفتهم عنصراً سياسياً ليؤخذوا بالحسبان، ليس إلا".

وفي سيرتَي دينس هيلي، اللتين تبلغان أكثر من ألف صفحة، وهو الذي كان وزيراً للدفاع في حكومة ولسون وكان مسؤولاً عن تسليم دييغو غارسيا إلى وزارة الدفاع الأمريكية، لم يعط إشارة واحدة عن طرد السكان. وفي العام 2004 طلبت من هيلي مقابلة، وأجاب: "أخشى أنني لا أملك أي ذكريات عن أرخبيل تشاغوس، آسف".

وفي 6 أيار/مايو من العام 1969، كتب السكرتير الخاص لهيلي إلى 10 داوننغ ستريت، يؤكد أن وزير الدفاع كان قد قرأ خطة ستيوارت و"هو يوافق مع توصياتها". لا بل إن هيلي استفسر عن تكلفة طرد السكان وسعى إلى التشديد على أن أي "تجاوز" لما فوق 10 ملايين جنيه إسترليني لن يكون محتملاً من إدارته[45].

وسعى ولسون إلى الحصول على موافقة كل الوزراء الكبار في وزارته ومن جملتهم المدعي العام، ومستشاره الرئيسي في القانون الدولي، وقد أعطوا جميعاً موافقتهم كتابة. ومن أواسط الستينيات من العام 1960 إلى العام 1974، كان لدى ثلاثة من رؤساء الوزارات وثلاثة عشر وزيراً معرفة شخصية عن طرد سكان جزر تشاغوس. ولم يُثر أحد منهم أي اعتراض.

وقال جيفورد: "من الصعب جداً أن نقبل أن الوزارات البريطانية تفعل هذا. وأنا لا أستطيع أن أبدأ في تبريره، لأنها كانت معروفة بأنها غير قانونية بموجب القانون الدولي، وهي الآن مقبولة بصفتها جريمة دولية ضد الإنسانية. ولدينا منذ ذلك الوقت مشكلة التطهير العرقي في البلقان، وعلى الرغم من أن درجة استخدام القوة قد لا تكون هي نفسها، فإن غرضها مع ذلك هو الغرض نفسه، وهو إجلاء الناس

بسبب أصلهم العرقي من منطقة لأنهم أناس غير مرغوب فيهم. لا أستطيع أن أرى كيف تصور أشخاص في عقولهم السليمة تلك السياسة أو كيف نفذوها".

وسألته عن السبب الذي يعتقد أنهم فعلوا ذلك من أجله، فأجاب:

"يستطيع المرء أن يقول فقط إن الذين فعلوها كانوا ينظرون إلى جائزة أخرى، وأن هذا كان يعتبر ثمناً يستحق الدفع، وذلك لأنه لن يكون هناك في الواقع أي اعتراض من هذه البلاد، وأن الذين فعلوها سيفوزون بها وينجون من العقوبة. وتبين الوثائق هذا بوضوح تام، لقد كانوا مهتمين فقط بألاّ ينكشفوا".

"كيف فازوا بها ونجوا من العقوبة؟"

"بالتحرك بذكاء وترحيل السكان قبل أن يكون أي شخص قد أدرك وجودهم. إنه مخجل جداً".

إن صمت معظم الصحافيين طوال معظم العقود الثلاثة سمح لهم أيضاً أن يفوزوا بها وأن ينجوا من العقوبة. وقد كتب جون ماديلي، وهو صحافي ومذيع يعمل حراً لحسابه، كتب تقريراً قوياً واسع المعرفة لمجموعة حقوق الأقليات، بعنوان: دييغو غارسيا: مقابلة بفوكلاند، وهي المقالة التي نبهتني لأول مرة إلى محنة التشاغوسيين[46]. ولإظهار أن سكان الجزر لم ينسوا نسياناً كاملاً في بريطانيا، فقد وصف ماديلي الحملة المدهشة الوحيدة التي قام بها جورج تشامبيون، وهو أستاذ إنجليزي من كنت، أنشأ في العام 1966 جمعية لدييغو غارسيا في المنفى، وكرس جهوده لشرح الجريمة للجمهور البريطاني.

وغير اسمه إلى "تشاغوس"، وقام تشامبيون بالاتصالات مع أعضاء البرلمان، ومع أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكيين ومع الجمهور. ويقف مرة في الشهر خارج وزارة الخارجية، ويحمل لافتة تحمل كلمتي "دييغو غارسيا" فقط. ويقف الناس ويسألونه من كان دييغو غارسيا. وقال: "بعد أن يعرفوا كانوا يساندون القضية"[47]. وهذا يذكرني ببريان هاو الشجاع، الذي يخيم حالياً في ميدان البرلمان طوال خمس

سنوات متوالية، وهو يعرض لافتة صغيرة تقول: "توقفوا عن قتل الأطفال. دعوا أطفال العراق يعيشون".

وكانت هناك مؤامرة موازية قيد الحركة في واشنطون في الستينيات من 1960 وفي السبعينيات من 1970، وهي أيضاً جرت في سرية عالية. وكان الهدف هو منع فضيحة اقتلاع السكان من الوصول إلى مجلس الشيوخ، إضافة إلى الطبيعة العدوانية للقاعدة المقترحة في دييغو غارسيا. وفي 14 كانون الأول/ديسمبر من العام 1966، نبه مسؤول في وزارة الخارجية وزير الخارجية إلى "أن الأمريكيين يصرون على أن الترتيبات المالية يجب أن تبقى سرية. وأن حكومة الولايات المتحدة، ولأسباب مقنعة تخصها، قد اختارت أن تخفي عن مجلس الشيوخ المساعدة المالية الكبيرة التي سوف نحصل عليها في شكل إعفاء من مدفوعات مستحقة عن بولاريس [سلاح نووي]"[48].

ولم يكن البريطانيون ليكونوا إلا سعداء جداً للتعاون. ووعدت برقية موجهة من وزارة الخارجية إلى سفارة واشنطون بأننا "أخيراً، وتحت ضغط شديد، ينبغي علينا أن ننكر وجود إسهام للولايات المتحدة في أي شكل، وأن نوصي الوزراء بأن يفعلوا ذلك في [البرلمان] إذا كان ضرورياً"[49] وكان المسؤولون مذعورين من أنه "إذا قام الأمريكيون، تحت ضغط شديد، بالكشف عن وجود الترتيبات المالية، فإننا آنئذ سنقع في صعوبات برلمانية ودستورية حادة"[50].

ويبين هذا الصدام بياناً عملياً أين يقع ولاء النخبة من حين إلى آخر – لا مع بلدها الوطن، أو مع مواطنيها، أو مع مؤسساتها الديمقراطية، بل مع نظام حكم أجنبي جشع يسعى إلى احتلال بلاد ذات سيادة لأسباب يرغب هذا النظام أن يخفيها عن شعبه هو.

بعد ثلاث سنوات، قابل وزير الخارجية، ستيوارت رئيس وزراء موريشيوس سيووساغور رامغولام، الذي كانت حكومته قد قبلت الاستقلال ورشوة ضئيلة جداً من المال في مقابل "فصل" تشاغوس. وعرض موضوع القاعدة في الحديث. وتسجل محاضر محادثتهم هذا التأكيد من ستيوارت. قال وزير الخارجية: "كلمة

قاعدة كلمة مضللة وغير دقيقة للاستعمال في هذا السياق.وكل ما هو متصل بذلك هو منشأة متواضعة للاتصالات البحرية. وهي لن تشكل قاعدة بأي شكل من الأشكال، لعدم وجود أي خطط لوضع قوات عسكرية عملياتية هناك،لا، ولن توفر المنشأة كذلك مساندة الإمداد والتموين (اللوجستية) لمثل هذه القوات"[51].

كل كلمة من كلامه كانت كاذبة، والعكس منها كان هو الصحيح. "فالمنشأة المتواضعة للاتصالات البحرية" التي "لن تشكل بأي شكل من الأشكال قاعدة" هي اليوم تؤوي أربعة آلاف شخص من الجيش العامل والمتعاقدين المساندين، وتضم اثنين من أطول مدرجات قاذفات القنابل في العالم، ومراسي لثلاثين سفينة، ورصيفين نوويين، وقبابا لتتبع الأسلحة الفضائية، ومحلات تسوق، ونوادي ليلية، وملعب غولف، وملاعب التنس، وبرك سباحة والمزيد فوق ذلك. إنها واحدة من القواعد الأمريكية الأربع "للحملات" خارج الولايات المتحدة[52].

وقد أبقت إدارتا الرئيس جونسون، والرئيس نيكسون هذه الخطط سرية لأكثر من عقد من الزمان. واليوم، تقدم المحفوظات القومية في واشنطون حقائق هي فضائحية مثل الفضائح الخبيثة في ملفات لندن. وتصف الوثائق "نقل عمال لب جوز الهند الجاف السابقين" بوصفها "رزمة نظيفة معقولة" مبررة بقصة الغطاء التي وافقت عليها لندن وهي أن دييغو غارسيا "ليس فيها سكان دائمون"[53].

وكان جوناثان ستودّارت واحداً من المؤلفين، وخدم في سفارات الولايات المتحدة في بورت لويس وفي لندن وخدم في وزارة الخارجية. وفي العام 2005 رتبت لأقابله في فندق في واشنطون. وهو الآن في الثمانينيات من عمره، وقال إنه قد وافق على التحدث إلي بسبب إيمانه القوي "بالتعبير الحر والمفتوح". وسألته لماذا كان قد كتب أنه لم يكن هناك سكان دائمون في تشاغوس.

وأجاب: "إن وزارة الخارجية ووزارة الدفاع في لندن أكدتا لنا أن أولئك الناس كانوا عمالاً مؤقتين متنقلين من موريشيوس، ولكن، نعم، سمعنا كل هذه القصص".

"بالتأكيد أنت عرفت الحقيقة في وقت مبكر في العام 1972".

"ماذا تعني؟"

"في العام 1972 كتب سفير الولايات المتحدة في موريشيوس، وليام بريوير، هذا إلى واشنطون: من غير المعقول أن نقرر أن دييغو غارسيا ليس فيها سكان دائمون. ليس هناك أدنى ريب في أن فيها سكاناً ثابتين منذ القرن الثامن عشر. هل رأيت ذلك؟"[54]

"نعم، كنت مدركاً لهذا. والسيد بل بريوير خريج مدرستي وزميل فصلي، وهو موظف عالي التأهيل جداً في السلك الخارجي. وكانت المشكلة هي أن البريطانيين كانوا ثابتين على خطّهم".

"في واحد من تقاريرك، كتبت أن الولايات المتحدة أصرت على أن تكون دييغو غارسيا "مكنوسة" و"منظفة" من الناس. وأشرت أيضاً إلى تهديد من الدعاية السيئة، وبهذا فأنت كنت مدركاً للعواقب المترتبة على ما كنت تفعله. هل أزعجك أي منها؟.

"كنت منزعجاً من القصص المتضاربة. انظر، لقد أرسلنا زميلاً هو جون كيللي، إلى هناك ليرى إن كان هناك أي سكان محليين يتحركون في الجزيرة".

"هل كانوا هناك؟"

"قال: لا"

"في أي عام كان ذلك؟"

"لابد أنه كان في العام 1974".

"ولكنهم كانوا كلهم قد رُحلوا في ذلك الوقت".

"أنت تعرف، أنني لا أجد هذا مثيراً للصدمة. ونحن لدينا تعبير لهذا في الديمقراطية. ويدعى (غ ع ش) هل أنت مطلع على ذلك؟"

"ذكرني من فضلك"

"غط عجيزتك شخصياً"

"هل تعتقد أن سكان الجزر يجب أن يسمح لهم بالعودة إلى الوطن؟"

"نعم، إذا كنت تستطيع أن تؤسس من دون أدنى شك... انتظر لحظة، هذا سؤال من النوع المحمل بالمضامين الخفية".

"غ ع ش؟"

"يجب أن تكون عملياً يا جون"

وأخذتني سيارة أجرة عابرة إلى قلب مدينة واشنطون، إلى مكاتب ليهمان إخوان، المستثمرين المصرفيين لأن جيمس شليسنغر كان مشاركاً فيها. وقد رتبت أن أقابل شليسنغر حول موضوع تشاغوس. وبصفته وزيراً للدفاع تحت إدارة الرئيسين نيكسون وفورد ثم مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، فقد كان مسؤولاً في نهاية المطاف عن استلام الأمريكيين لدييغو غارسيا وعن بناء القاعدة العسكرية. وفي تجسيد ما يعرف في الولايات المتحدة الأمريكية باسم "دولة الأمن الوطني"، يعتبر شليسنغر صقر الصقور، ولديه إيمان ثابت بأمريكا الإمبراطورية. وهو طويل وله وجه كحجر الصوان، مغلق لا يمكن اختراقه على ما يظهر، وجه يفيض بسلطة القوة.

وقلت له: "في أثناء السبعينيات من 1970، عارضت معظم البلدان التي لها حدود في المحيط الهندي – وهي تسعة وعشرون بلداً منها في الحقيقة – إنشاء القاعدة الأمريكية على أرض دييغو غارسيا، هل سبق أن أُخذت تلك المعارضة بالحسبان؟"

"حسناً، هم في العلن عارضوها، لأن لديهم، حسب ما نفترض، معارضة في صفوف شعوبهم. ولكن هذه الحكومات كانت تفهم التهديد السوفيتي بعد حرب الشرق الأوسط في العام 1973، وقالت تلك البلدان لنا: يجب علينا نحن أن نعارض هذه القاعدة علناً، ولكن امضوا فيها قدماً".

"في تحد لشعوبهم؟"

"كانوا عمليين.".

"حين صرت وزيراً للدفاع، هل كنت مدركاً أن سكان دييغو غارسيا كانوا قد طردوا بالقوة لإ فساح الطريق للقاعدة؟"

"لم أكن مدركاً لذلك".

"ولكن في ذلك الوقت، كانت معروفة لمجلس الشيوخ، وقد قال عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون: الحادثة بأكملها تفوح منها رائحة كريهة من الخداع والأكاذيب. ولدى قراءة السجلات الرسمية في واشنطون ولندن، فإن من الواضح أن حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا قامتا بصفقة سرية في أواسط الستينيات من 1960، وأن العنصر الرئيس فيها كان هو الإصرار الأمريكي على أن يقتلع السكان من الجزيرة ويرحلوا منها".

"هذا ليس صحيحاً".

"إنه صحيح، لأن السجلات تبين أنه صحيح، وقد أعلم السفير الأمريكي في موريشيوس وزارة الخارجية كتابة أن ما يصل إلى ألفين من السكان كانوا يعيشون هناك منذ القرن الثامن عشر".

"أنا أرى أن تلك ليست هي المسألة".

"حسناً، إنها هناك موجودة في السجلات. وأنا أستطيع أن أعرضها عليك إذا كنت ترغب".

"في الواقع، حين ظهرت تلك المسألة منذ بضع سنوات، رجعت إلى السجلات، ووجدت إشارة إلى ما تقوله أنت".

"مبدئياً، هل تعتقد أن من الصواب طرد شعب من بلده لإفساح الطريق لإنشاء قاعدة عسكرية؟"

obeikandi.com

"أنا أعتقد، أن فكرة الضرورة العسكرية، تأخذ الأوليّة عادة باستثناء أوقات السلم".

"وهذا كان في أوقات السلم".

"كان في أوقات الحرب الباردة، وكنا نشعر، نحن والحكومات الأوروبية أننا معرضون للتهديد".

"وما علاقة ذلك بشعب يعيش بسلام على جزيرة في وسط المحيط الهندي؟"

"ما أتذكره هو أن الحكومة البريطانية عوضت السكان المحليين الذين نقلوهم إلى أي مكان، وقد كان...جزر سيشل؟"

"إلى موريشيوس، معظمهم. لقد رأيتهم هناك، لقد دمرت حياتهم وما عوضوا به ضئيل لا يكاد يذكر. دعني أوجه لك هذا السؤال. هل سبق أن كان هناك وقت درس فيه الناس الموجودون في السلطة عواقب فرض تلك القوة؟ في هذه المسألة، كانت العواقب كارثية".

"كم من الناس كانوا معنيّين؟"

"ألفا نسمة، معظمهم لهم جذور تعود إلى القرن الثامن عشر".

"حسناً إن عدداً لا بأس به منهم كانوا عمالاً خارجيين".

"لقد تم إظهار ذلك بأنه غير صحيح والحادثة مخبوءة من التاريخ. ماذا لو أن شيئاً مثل هذا كان قد حدث لك ولي؟ ماذا لو أننا أخبرنا أننا على وشك أن نصير لاجئين فوراً لأن أحداً أراد أن يضع قاعدة عسكرية في بلدنا؟"

"أقترح أن تنظر إلى الخلف إلى عدة قرون من تاريخ الإمبراطورية البريطانية. هذا متواضع بالنسبة إلى غيره مما حدث في أماكن أخرى، كان هناك لامبالاة بالسكان المحليين".

"لا يناقش أحد في ذلك، ولكن ألم نتقدم منذ ذلك الوقت؟"

"بالتأكيد. والناس في القرن الحادي والعشرين يستطيعون أن ينظروا إلى الخلف وينتقدوا، ولكن هذا امتياز للناس المحميّين".

"الناس المحميّون؟"

"نعم، الناس الذين ينتقدون الماضي، على الرغم من أن الماضي له علاقة بالحريات التي يتمتعون بها اليوم".

"ألسنا معنيين بأن نتعلم من الماضي؟ أي إذا وجدنا أنه قد تم ارتكاب بعض الشر الكبير، أفلا نقول: لن يكون ثانية؟"

"بالتأكيد".

"هذا ما حدث. دمرت حياة الناس، وأنت كنت في السلطة. أليس هذا شيئاً يهمك؟"

"لقد فاتني المغزى من ذلك".

"المغزى هو أنك إذا اتخذت قراراً في واشنطون ولندن وكان هذا القرار يدمر حياة عدة آلاف من الناس في الطرف الآخر من العالم، ألا ينبغي أن تستدعى للمساءلة؟"

"لقد كانت هذه مسألة صغيرة نسبياً. ولو أن المرء يعود إلى الخلف إلى السلوك البريطاني، في الحرب العالمية الثانية، وعلى سبيل المثال، إلى الهجوم على درسدن، والهجوم على الأسطول الفرنسي، وكل ذلك تحت قيادة تشرتشل، الذي نعجب به، وعن حق، إعجاباً كبيراً، فإننا نجد أن هذه القضية التي يجري إبرازها الآن هي قضية صغيرة جداً، ويجري إبرازها لأسباب لا أستطيع أن أعزوها لأي شيء آخر غير البحث وراء دعاية معينة".

"ولكن التشاغوسيين ليسوا النازيين، ومن وجهة نظرهم إنها بحث عن العدالة".

"وما هو دافعك أنت، إذا جاز لي أن أستفسر؟ محض البحث عن العدالة، أنا متأكد".

"نعم، هو ذلك. ألا تعتقد أن هذه الأسئلة صحيحة مشروعة؟"

"أعتقد أن الأسئلة مستندة إلى رفض الاعتراف بسياق الأحوال الزمنية وإلى نقد تلك الأحوال بعد أن تكون قد صارت أقل علاقة بالحاضر".

"دكتور شليسنغر، ليس بالنسبة إلى سكان جزر تشاغوس فهي لم تصبح أقل علاقة بالحاضر. وهم ما زالوا ممنوعين من العودة إلى الوطن، وما زالوا حتى الآن لم يعوضوا".

"أنا أفهم. حسناً، لا أستطيع إلا أن أقول فقط: إنني أستبقي عقلاً منفتحاً عما إذا كان يجب لهذا أن يحدث أم لا".

وانفجر شليسنغر غاضباً وانصرف، وهو يتهمني بأني "لا ألعب وفق القواعد".

في لندن في العام 1971، جاءت آخر كذبة كبيرة قصدت إخفاء الحقيقة وهي أن سكان الجزر كانوا يمتلكون الجنسية البريطانية. في شهر كانون الثاني/يناير ذلك، أبرق موظف كبير في المندوبية البريطانية العليا في بورت لويس إلى وزارة الخارجية قبل الاجتماع مع رئيس وزراء موريشيوس، وهو الاجتماع الذي كانت مسألة تشاغوس ستتناقش فيه. وقد كتب يقول إنه لا يعتزم إثارة قضية جنسية سكان الجزيرة، ولكن كان من "الممكن دائماً أنه [هو] قد يضع هذه النقطة في مكانها، وفي هذه الحالة، حسب ما يفترض، سيتعين علينا أن نعترف بكل شيء"[55].

وردت وزارة الخارجية بأنه لم يكن من سياسة حكومة صاحبة الجلالة أن "تعلم (العمال المتعاقدين) بمواطنيتهم المزدوجة". أو أن تخبر الحكومة الموريشيوسية، وذلك لأن السياسة البريطانية كانت "سياسة الإخفاء"[56].

واستمرت سياسة الإخفاء سارية إلى نهاية القرن تقريباً، مع كل الاحتياطات الممكنة التي اتخذت للإبقاء عليها. وقد أوصى محضر من وزارة الخارجية لوزير الخارجية دوغلاس هيرد بأن "لا يسمح لأي من الصحافيين بزيارة دييغو غارسيا" وأن

الزيارات من أعضاء البرلمان يجب ألا تشجع لكي يستمر استبعاد أولئك "الذين يثيرون عن عمد أسئلة غير مرحب بها"[57].

ومع ذلك، ففي أواخر التسعينيات من 1990، تم كسر وفتح تابوت يحتوي على ملفات رسمية في كيو. وبعد أن تسلح بهذا الدليل فوق العادي، توجه ريتشارد غيفورد وفريقه القانوني إلى المحاكم. وفي أكتوبر من العام 2000، طار أوليفيير بانكولت ومجموعة من مواطنيه، ومن جملتهم ليزيت تاليت وتشارليسيا أليكسيس إلى لندن للإدلاء بشهاداتهم في دعوى لدى المحكمة العليا وهو العمل الذي تحدى شرعية نزع ملكيتهم.

وفي الوقت الذي كانت تعد فيه القضية، تجمعوا معاً في غرفة قبو في فندق رخيص، ولم تسهم حكومة بلير ببنس واحد لإعاشتهم. وعلى الرغم من أن إجراءات المحاكمة أديرت بلغة لا يفهمها أحد منهم، باستثناء أوليفيير، فإنهم كلهم أعطوا شهادات مؤثرة عن حياتهم التي خربت وعن مصارعتهم في قضية المصير.

وكانت الحكومة قد خافت من هذا، ولذلك قامت وزارة الخارجية في الأشهر الثلاثة التي سبقت الاستماع بشن حملة تزييف معلومات مضللة عمداً، قادها بيترهين، النشيط السابق ضد التمييز العنصري، والممسوخ الآن إلى النموذج الحق لوزير بليري. وقال هين لمجلس العموم: "لقد مضى على الجزر الخارجية وهي غير مأهولة مدة ثلاثين عاماً ولذا فإن أي إعادة توطين سيطرح مشكلات خطيرة، بسبب القابلية العملية للتطبيق وبسبب ما يتصل بالتزاماتنا المتعلقة بالمعاهدة"[58].

إن كلمة "معاهدة" تعني ضمناً وجود اتفاقية دقق فيها البرلمان. لم يكن هناك أي معاهدة: صفقة إجرامية سرية فقط. وطبيعة الجريمة موضحة بجلاء في قانون روما للمحكمة الجنائية الدولية، التي تنظر إلى اقتلاع السكان وإجلائهم بالقوة بوصفه جريمة ضد الإنسانية[59]. وزيادة على ذلك، فقد كان يمكن تقديم البيان العملي على عدم صحة القول إن الجزر لم تكن مأهولة منذ طرد السكان. فمستعمرات "أصحاب اليخوت" عاشت طوال شهور على أرض الجزر الخارجية، وطوال أكثر من عشرين سنة استمتع أربعة آلاف جندي عامل أمريكي ومتعاقدين

أجانب بالظروف المعيشية على أرض دييغو غارسيا التي وصفها الأسطول الأمريكي بأنها "متميزة" و"لا تكاد تصدق"[60]. ومع ذلك، فإن وزارة الخارجية أمرت بالقيام بدراسة "لقابلية التطبيق" لعودة السكان إلى الجزر والجدوى منها. ولم يستشر أي فرد واحد من سكان الجزيرة، وقد وصف العالم الأول في العالم في قضية تشاغوس الدراسة كلها بأنه تمثيلية "لغز كلمات"[61].

وفي 3 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2000، وفي المحكمة العليا، فإن مستشار محكمة الاستئناف لوز والسيد القاضي جبس أذهلوا الحكومة. استشهدوا بالماغنا كارتا (الميثاق الأعظم أو العهد الكبير)*، الذي حظر "النفي من المملكة" من دون الدعوى القضائية المناسبة، وسحقوا بالإجماع قانون العام 1965 الذي استعمل لترحيل سكان الجزر بوصفه قانوناً غير قانوني. وفي إشارة القضاة إلى الحكومات المسؤولة، اقتبسوا من تاسيتوس** "إنهم يصنعون صحراء ويسمونها سلاماً". وأضافوا: "إنه قصد بها أن تكون مفارقة ساخرة، وأما هنا، فقد كانت إخفاقاً قانونياً خسيساً".

وبدا كأن أوليفيير، وليزيت، وتشارليسيا، وريتا كانوا يستطيعون أخيراً أن يذهبوا إلى الوطن[62].

وفجأة اكتشفت الصحافة التشاغوسيين. وقال العنوان الرئيسي في التايمز: "سكان الجزر يعودون إلى الوطن بعد ثلاثين عاماً في المنفى" و"المساعدون أغاظوا وزارة الخارجية"[63]. وأخذت صورة لأوليفيير وهو يخطو خطوة واسعة خارجاً من المحكمة العليا إلى الشارع الواقع على سيف نهر التايمز (ستراند) وذراعاه مرفوعتان في تحية النصر. وكانت هذه الصورة، مع العنوان الرئيسي، "ثلاثون عاماً

* ميثاق حقوق صدق عليه ملك الأنجليز في العام 1215، وهو أساس الحريات الدستورية الإنجليزية التي حددت قوعد العدالة وضمنت الحرية الشخصية والسياسية وحقوق الملكية للمواطنين وغير ذلك. (المترجم)

** كورنيليوس تاسيتوس (55؟ – 120م) مؤرخ وخطيب روماني. أشهر أعماله تواريخ وحوليات، وهو مصدر رئيسي عن القرنين التاليين لحياة المسيح عليه السلام.(المترجم)

من الأذى تنتهي"، معلقة على باب مبناه الصغير في بورت لويس، وما تزال تستدر الدموع من عينيه[64].

وقال لي: "إنه شيء لن أنساه أبداً، فعندما خرجت من المحكمة، كنت أعرف أنني حصلت على نصر. شعب صغير هزم قوة كبيرة".

وقالت تشارليسيا: "كنا منتشين. وظننا أن البريطانيين كانوا يمتلكوا بعض الأحاسيس أخيراً".

وقالت ليزيت: "كان النصر يعني أنني شعرت أنني مرتاحة لأول مرة، لأنني ظننت أنني سأعود إلى وطني الأم، وإلى المقبرة التي يرقد فيها أسلافي. وظننت أنني سأرى شواطئنا الجميلة ثانية، والبحر الجميل، في المكان الذي ولدنا فيه".

ولكن حكومة بلير كان لديها أفكار أخرى. بعد عصر ذلك اليوم نشرت وزارة الخارجية قانوناً جديداً للهجرة منع سكان الجزر من العودة إلى دييغو غارسيا، وهو المكان الذي جاء منه معظم السكان. ومرة أخرى، استشهدت "بالتزامات المعاهدة" مع واشنطون.

وبرغم ذلك، فإن حكم المحكمة العليا كان يعني أن الحكومة لا تملك أي خيار آخر سوى أن تمنح سكان الجزر جوازات سفر بريطانية، وبدا أنه لا يوجد أي شيء يوقف السكان من العودة إلى الجزر الخارجية. وكان أول من يجرب ذلك ستة من صيادي السمك التشاغوسيين الذين انطلقوا في قارب صغير من بورت لويس إلى بيروس بانهوس. وقال روبن ماردیموتو: "حين هبطوا إلى الأرض، كان الموقف عاطفياً جداً بالنسبة إليهم أن يمشوا على أرض وطنهم وأرض أسلافهم. ولكن هل تعلم، أنه في غضون خمس دقائق، اكتشف وجودهم زورق دورية بريطاني وأخبرهم بأن عليهم أن يغادروا المكان؟ وقالوا للدورية: انتظروا دقيقة، ها هي جوازات سفرنا، فهذه بلادنا، وها هو حكم المحكمة العليا، نرجو أن تقرؤوه". وقال الشرطي البريطاني: "لن نتحدث إليكم، عليكم أن تخرجوا". وعلى طول مائة ياردة من الشاطئ، كانت هناك مستعمرة من أصحاب اليخوت والبحارة، وكان

معظمهم من غير البريطانيين، وكانوا يلعبون لعبة الكرة الطائرة على الشاطئ. لم يعكر صفوهم أحد.

وفي شهر حزيران/يونيو من العام 2002، نشرت وزارة الخارجية "دراستها" عن "الإمكانية العملية" وجدوى عودة سكان الجزر إلى وطنهم. وادعت هذه الدراسة أن "الفيضانات، والعواصف، والنشاط الزلزالي" سوف "يجعل الحياة عسيرة". وأنه لن يكون هناك ماء كاف، أو أرض زراعية، أو مصائد أسماك تمد السكان. وتكلفة إعادة التوطين ستكون تكلفة باعثة على "منع" إعادة التوطين[65].

وقام خبيران دوليان بدراسة "الدراسة" وهما: جوناثان جينيس من جامعة هارفارد، وهو خبير بإعادة توطين السكان، والأستاذ الدكتور ديفيد ستودارت، من كمبردج وبيركلي، وهو الثقة الأول في العالم في شؤون تشاغوس وجزر الحواجز المرجانية.

ولاحظ جينيس أن تشاغوس لم تَخبُر إعصاراً واحداً في ثلاثين عاماً من تقارير المناخ، وآخر عاصفة كبيرة كانت في العام 1891. وكتب يقول: "بصراحة، إن تشاغوس محظوظة بأنها خالية من العواصف المدارية الكبيرة. ومعظم الجزر المرجانية لا تنعم بذلك الحظ... وتمتلك تشاغوس بيئة لطيفة عاش [فيها الناس] طوال ثمانية أجيال". ووصف الدراسة الرسمية بأنها "تشويه للبيانات الموجودة في اليد... وليست موضوعية... ومن السخف أن نتخيل أن الجزر لا يمكن أن تستوطن ثانية"[66].

وكان ديفيد ستودارت قد زار أرخبيل تشاغوس لأول مرة منذ أربعين سنة تقريباً. وليس هناك عالم يعرف الجزر معرفة أفضل منه. وقد أخبرني أن "وزارة الخارجية في الواقع جربتها في ثلاثة مما يدعى دراسات. وهذا ما شكل مجلداً مؤثر المنظر. وفي الحقيقة، فإن ما أنتجوه غير معقول. فصفحة بعد صفحة يتكرس المجلد لترسيخ أن الشواطئ مكونة من الرمال! ويبالغون في القول بندرة الإمدادات من الماء. وقد نشرت أوراقاً تبين أن هذه الجزر هي من بين أرطب الجزر في العالم، وأن مياه

المطر تبقى ثلاثة أيام على سطح الأرض. والمشروع كله بلا قيمة، وهدر للوقت، وهو تمثيلية لغز كلمات غالية التكلفة"[67].

كان كسام يوتيم قد خدم بوصفه الرئيس الأول لموريشيوس طوال عشر سنوات من العام 1992. وهو رجل مهذب، فصيح، تحدث إلي بطريقة لم أعرفها من قبل أبداً عن رئيس سابق يتكلم عن حكومة صديقة. وقال لي: "يجب علي أن أذكرك أن هذا تم انتهاكاً لميثاق الأمم المتحدة باستخدام الأكاذيب، أنا لا أتصنع بكلماتي: لقد كانت أكاذيب، اللعنة على الأكاذيب. إن الحكومة البريطانية، وهي تقذف بالناس إلى خارج أرضهم، قد قادت الكثيرين منهم، وهي تعرف، إلى الموت المحقق. وما من واحد من بني البشر يمكن أن يعامل مخلوقاً آخر من بني البشر بالطريقة التي عامل بها البريطانيون الشعب التشاغوسي. وللمقارنة، علينا أن نعود إلى الخلف إلى أيام الرق. ومن أجل ذلك، تلقت بريطانيا الثمن الفدية الذي يتلقاه اللصوص، وما يزال البريطانيون يرفضون طاعة المحكمة وترك الناس ليعودوا ولو إلى الجزر الخارجية".

وقلت: "حين تسأل الأمريكيين عن هذا، فهم يقولون دائماً :حسناً، اسألوا البريطانيين".

"هذا مثير جداً للاهتمام. فأنا ذهبت إلى وزارة الخارجية واستقبلتني هناك البارونة آموس، الوزيرة المسؤولة في مجلس اللوردات، وطلبت السماح لسكان الجزر أن يذهبوا ليضعوا الأكاليل على قبور أسلافهم. وأجابت: ليس لدينا أي اعتراض. وعلى العكس، فنحن سنساعدهم. وسوف نضع سفينة تحت تصرفهم. إنني أؤكد لك أننا نحن أنفسنا جاهزون للموافقة... ولكننا لا نعرف إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة للموافقة".

"وقلت لها: وبناء على ذلك، يا بارونة، هل تسمحون لي أن أرفع المسألة وأدرسها مع الرئيس بوش؟" فقالت: "بالتأكيد" وهذا هو ما فعلته. كتبت إلى الرئيس بوش، طالباً منه الإذن للتشاغوسيين لزيارة جزرهم ووضع الأكاليل. وجاء الجواب لمن

وزارة الخارجية]، "نعم... ولكن البريطانيين غير مستعدين للموافقة". وهكذا تلك هي اللعبة. إنهم يلعبون البنغ بونغ بحياة سكان الجزر".

تفخر البارونة آموس بنفسها بناء على أصولها الإفريقية الكاريبية. وهي تلقي العديد من الخطابات المفعمة بالروح الليبرالية، وذلك مثل المحاضرة الكبيرة التي ألقتها في العام 2003 وكانت بعنوان "كشف الكذبة وترويج المساواة"، وفيها "تماهت مع الأقليات المعرضة للخطر والطرف المظلوم"[68]. وحين طلبت منها إجراء مقابلة معها، وافقت مبدئياً. وحين قلت لها: إنها عن التشاغوسيين، تراجعت من خلال مرؤوس أقل منها رتبة.

في شهر آذار/مارس من العام 2003، استقال روبن كوك من الحكومة احتجاجاً ضد غزو العراق. وقد أجريت معه مقابلة في العام التالي، وقد توفي في العام 2005. وأخبرني أنه أثار فضيحة تشاغوس لأول مرة مع رئيس الوزراء جيمس كالاهان في مؤتمر حزب العمال في العام 1975 في برايتون.

"في الواقع كنت في غرفة نومه في فندق غراند وقلت له: انظر، يا جيم، أنا أسألك في كل شهر سؤال دييغو غارسيا ولم تخبرني أبداً ولو لمرة واحدة أنه كان يوجد هناك شعب يعيش على أرض الجزيرة. وأنا أذكره بشكل حي وهو يبسط يديه على أغطية السرير ويقول: "حسناً، يا روبن، لم يسبق لك أبداً أن سألت السؤال".

وقلت: "كان مشؤوماً، أن تدرس ماذا فُعل بالشعب، أليس كذلك؟"

"نعم، كان كذلك. كانت الحادثة واحدة من أقذر الحوادث التي سبق لي أن عرفت عنها والتي لا يمكن الدفاع عنها أخلاقياً".

"لماذا إذاً لم تغتنم الفرصة وتصحح الخطأ حين صرت وزيراً للخارجية؟ بعد أن وجدت المحكمة العليا الموقف لصالحهم، وكل ما فعلته لسكان الجزر كان منحهم الجنسية التي كانوا يمتلكون الحق فيها على كل حال. وأنت منعتهم مع ذلك من أن يذهبوا إلى وطنهم".

"لم تكن إعادتهم إمكانية سياسية أبداً. فالأمريكيون كانوا هناك، ولديهم اتفاقية معنا".

"وماذا لو قلت للأمريكيين: إن المحكمة العليا في بلادنا قالت إن ظلماً كبيراً قد وقع وأن من الواجب علينا أن نعطي هؤلاء الناس الفرصة للذهاب إلى الوطن وإعادة بناء حياتهم".

"حسناً، لقد قلت ذلك تقريباً".

"ولكنك تخليت عن دييغو غارسيا".

"أوه، نعم، لأن ذلك لم يكن ممكن التحقيق سياسياً أبداً مع الأمريكيين".

"وذلك هو السياق الذي وقف فيه كل شيء؟"

"نعم".

وفي العام 2002، كان التشاغوسيون يسافرون بجوازات سفرهم البريطانية الجديدة، وبدؤوا يصلون إلى بريطانيا، ليستحضروا حملتهم إلى لندن وليهربوا من فقر موريشيوس. وحين طاروا إلى مطار غيتوك، قدموا احتجاجاً في بهو المطار، ورفضوا التحرك من هناك لعدة أيام، إلى أن وافقوا أخيراًعلى الذهاب إلى فنادق رخيصة وإلى عقار سكني في كراولي في سسكس. وقال المتحدث باسمهم آلان فينكاتاسين: "لو سمح لنا أن نعود إلى تشاغوس، لما كان أي واحد منا يريد أن يكون هنا"[69].

وفي العام التالي كانوا جميعاً في المحكمة العليا، وكانوا في هذه المرة يطالبون بالتعويض. ولكن في هذه المرة، كانت روح الماغنا كارتا وتاسيتوس غائبة إذ إنهم واجهوا نوعاً مختلفاً جداً من القضاة، السيد القاضي أوزيلي، الذي أشار من المنصة إلى الحكومة البريطانية بوصفها "نحن" في حين وصف القضية بأنها "غير وجيهة" و"لا أمل فيها"[70] ولم يمنح سكان الجزر بنساً واحداً، وهو قرار "رحب" به بل رامل، وزير الخارجية المسؤول عن تشاغوس. وقال رامل: "لقد جزمنا دائماً أن الإجراءات [الخاصة بالتعويض] كانت إجراءات أسيء تصورها"[71].

بعد خمسة أشهر، ألقى رامل خطاباً مثيراً أمام هيئة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة في جنيف، وقال: "أود أن أستذكر الكلمات الافتتاحية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ينص على أن: الاعتراف بالكرامة الأصيلة وبالحقوق المتساوية غير القابلة للتنازل عنها لكل أعضاء الأسرة الإنسانية هو الأساس الذي تقوم عليه الحرية، والعدالة، والسلام". وبكلمات أخرى، فمن دون مراعاة حقوق الإنسان من جميع الدول فإن الحرية، والعدالة، والسلام مهددة تهديداً أساسياً. وتعهد أن "يعمل لإزالة هذا التهديد"[72].

بعد ثلاثة أشهر قام رامل بعمل النقيض المضاد تماماً. وظف اليد المشعوذة نفسها التي استخدمتها حكومة ولسون لطرد سكان الجزر في الستينيات من 1960، فأرسل مرسوماً ملكياً بمشورة المجلس الخاص إلى الملكة لتطبع موافقة خاتمها المطاطي عليه. وهذا المرسوم قلب نصر التشاغوسيين في المحكمة العليا في العام 2002 بكليته ومنع سكان الجزر من العودة إلى الوطن مطلقاً. وقال ريتشارد غيفورد: "لم أفكر ولا في أشد أحلامي طيشاً أن الحكومة سوف تضع حكم المحكمة العليا جانباً بكل بساطة وتتصرف بمثل هذه الاستهانة الفاحشة".

ودُسّ المرسوم الملكي بمشورة المجلس الخاص مع قائمة من الأوامر الملكية غير المؤذية، تراوحت بين تعديل على النظام الأساسي لكلية قائسي البصر وتعيين أربعة مفتشين تربويين لدى جلالتها في سكوتلندا. ولم تعط أي أسباب للتنصل من حكم المحكمة، وأشار النص المختصر إشارة غير صادقة إلى "مغادرة" سكان الجزر. وبكل بساطة أعلن مستشار خاص مصير آلاف من رعايا جلالتها وهم أكثر الرعايا تعرضاً للخطر، ولسوء المعاملة ولهضم حقوقهم، وبذلك الصوت الغريب الحاد لها قالت هي: "موافق عليه"[73].

حدث ذلك في 10 حزيران/يونيو من العام 2004، في يوم انتخابات في بريطانيا، حين ظنت الحكومة أنه لا أحد سيلاحظ، وأن الدعاية السيئة ستكون في حدها الأدنى أو غير موجودة. وعموماً، كانوا على حق. فبعد أسبوعين، فإن عضواً واحداً

فقط من البرلمان، وهو ليو سميث، سأل رامل هل استشير واحد من التشاغوسين من قبل؟ وكان الجواب بكلمة "لا" بلا تزويق وبلا رحمة[74].

وافق رامل على رؤيتي في وزارة الخارجية في شارع الملك تشارلز، بعيداً عن الوايت هول. وبدأت بسؤاله: لماذا لم تمتثل الحكومة لحكم المحكمة العليا وللأمم المتحدة وتسمح للتشاغوسيين بالذهاب إلى وطنهم؟ فأجاب: إن الدراسة الرسمية "دراسة قابلية التطبيق" والجدوى أظهرت أن الجزر لم تبق قابلة للسكن وأن هناك مخاوف بشأن مستوى البحر، والفيضان، والمياه العذبة.

وقلت: "هناك أربعة آلاف جندي عامل أمريكي ومتعاقدون، ومدرجان لقاذفات القنابل، كل واحد منها بطول ميلين ونصف، ومراس لأسطول من السفن، وأحوال معيشية يصفها الأسطول الأمريكي بأنها" لا يستغنى عنها"، و" متميزة" و" لا تكاد تصدق"، وهم يريدون تمديد ما يدعى عقد إيجارهم لها لما وراء العام 2016. فهل تطلب منا أن نصدق أن هذه الجزر هي فعلاً غير قابلة للسكن، بل هي تغرق؟"

"لا، لا، طبعاً هي قابلة للسكن، ولكنه بتكلفة... وهذه التكلفة تستند إلى توصيات مالية محددة في تقرير الخبراء".

وقلت: "ها هي نسخة من تقريرهم، وفي الصفحة الثالثة، يقول: إن هذا التقرير لم يكلف بواجب التحقيق في التكاليف المالية لإعادة التوطين. اغفر لي من أجل القول هكذا، ولكن يبدو لي أن ما قلته أنت قبل قليل كان مختلقاً".

"إذا قلت لك، يا سيد بلجر، بأن علينا مسؤوليات مالية طارئة، فهذا يعني أنك إذا كان عندك زلزال، وإذا كان عندك ثوران بركان، وإذا كان عندك موجة مد، فإن دافع الضرائب البريطاني هو الذي سيدفع الفاتورة".

"يا سيد رامل لا توجد فرصة لكرة ثلج في جهنم ليكون هناك زلزال، أو إعصار أو موجة مد في تشاغوس. إنها بيئة لطيفة لطفاً كلياً. وذلك هو السبب الذي يجعل للأمريكيين فيها قاعدة ضخمة هناك وهم يصفون البيئة بأنها لا تكاد تصدق. هل رأيت الظروف المعيشية للتشاغوسيين في موريشيوس؟"

"لا... ولكن لا شك عندي أن بعض الناس، مثلما هو الحال في كل أنحاء العالم، يعيشون في فقر. ومع ذلك، عند النظر إلى الموقف الإجمالي فإن المجتمع التشاغوسي هو الآن مندمج في كل من موريشيوس وجزر سيشل".

"إنهم بوضوح غير مندمجين. لقد رأيت ذلك بنفسي، والرئيس السابق كسام يوتيم ذكر أنهم غير مندمجين إلى حد كبير. إذا لم تكن قد ذهبت إلى هناك فكيف تستطيع أن تكون على يقين؟"

"أرجو أن تنظر إلى ما فعلناه لهم. إن هذه الحكومة قد شرّعت منحهم الجنسية البريطانية".

"ولكن ماذا كان حقهم؟ انظر إلى التعويض الذي أعطيتموه لهم. الرئيس السابق كسام يوتيم يسميه فستق العبيد، أي، مبلغاً تافهاً. لقد رأيت الكثير من الفقر في العالم، وهؤلاء الناس لا يبدو لي أنهم قد عوضوا أدنى تعويض".

"لقد أعطي التشاغوسيون ثلاثة عشر مليوناً ونصف المليون من الجنيهات الإسترلينية بأسعار اليوم".

"كما تعرف، لم يتسلموا في الواقع أكثر من ألف جنيه لكل عائلة، على أقصى حد. وذلك هو السبب في أنهم فقراء فقراً مرعباً وموضع سخط من السكان من حولهم".

"أنت لا تستطيع أن تصنع النقود، عليك أن تتخذ خيارات عن الطريقة التي تصرف بها نقودك. وبالنسبة إلى إعادة السكان إلى الجزر، فإن المال يجب أن يأتي على الأرجح من عون يجب أن نعطيه لأناس فقراء في مكان آخر".

"ألا تشعر هذه الحكومة؟ ألا تشعر أنت بأي عار بسبب ما فُعل بهؤلاء الناس؟"

"أنا لا أبحث عن تبرير القرار الذي كان قد اتخذ في الستينيات وفي السبعينيات".

"لا، أنا أعني العار الآن. لقد استخدمت السلطات القديمة نفسها لتمنعهم من العودة إلى الوطن".

"لا، أنا لا أشعر بالعار. ولكنني أفهم الارتباط التاريخي الذي كان للمجتمع التشاغوسي بهذه الجزر، ونحن مستعدون أن ندعم زيارة إلى قبور أسلافهم".

"ارتباط تاريخي؟ دعني أسألك سؤالاً شخصياً. ماذا لو أنك أنت وأسرتك قُذفتم خارج وطنكم، وضعتم في سفينة، ورميتم على أرصفة المرافئ في مكان ما، وأنتم معدمون؟ كيف ستحب ذلك؟

"إذا لم أكن قد عوضت، فسأكون غضبان جداً..".

"هؤلاء الذين يقودون هذا الصراع من سيدات طاعنات في السن بمعنويات عالية، هن اللواتي لا تسمحون لهن بالذهاب إلى الوطن ليمتن هناك. أليس هذا مخجلاً؟"

"أنا لن أكون خجلاً. وكما قلت، فإن المال الذي سيمول حركتهم في العودة يمكن فعلاً أن يصرف على أناس فقراء".

وكان رامل قد أقر أمام البرلمان أن تكلفة إعادة توطين سكان الجزر هي أبعد ما يكون عن كونها باعثه على "المنع". فهي ستكون خمسة ملايين جنيه إسترليني للإنشاء وخمسة ملايين جنيه إسترليني في السنة للإدامة. وكما يشير ريتشارد غيفورد، هناك ثروة من الدخل يمكن أن تكتسب من مصائد الأسماك، وكذلك فإن الإتحاد الأوروبي سيساند إعادة التوطين. وإذا وضعنا هذا جانباً، فإن مبلغ خمسة ملايين جنيه إسترليني ليس أكثر من تكلفة المحافظة على سفارة بريطانية من مثل التي ترفع علم الاتحاد في موريشيوس[75].

حين كنت في موريشيوس، كان المندوب السامي، ديفيد سنوكسيل، يُخدم هناك بأربعة ملاعب تنيس، وحدائق غناء، وبركة سباحة بحجم كامل، وسيارة جاغوار ومستعمرة من الموظفين، وكل ذلك يدفعه دافع الضرائب البريطاني الذي عبر بل رامل عن مثل ذلك القلق عليه.

عند سفح التل، وليس أبعد من مسافة خمس عشرة دقيقة في السيارة، يوجد بيت لأسرة اعتبرت غير مستحقة لنقود دافع الضرائب البريطاني، وفقاً للوزير، رغم

أن هؤلاء أيضاً هم مواطنون بريطانيون. وأول مرة لمحت فيها هذه الأسرة من التشاغوسيين المنفيين كانت في فيلم تلفزيوني في العام 1982، وهو فيلم قارن معاملتهم مع المعاملة التي عومل بها سكان جزر الفوكلاند. في إحدى تسلسلات الفيلم تحركت آلة التصوير يميناً وشمالاً وإلى الأعلى وإلى الأسفل لتمر على أربعة عشر شخصاً نائمين في تناوبات في غرفة بائسة وسخة، مع وجود طفل في صندوق من الورق المقوى[76].

بعد اثنين وعشرين عاماً، وجدت الأسرة نفسها تعيش في المكان البائس الوسخ نفسه. مازالوا ينامون على الأرض، ومازال المطر يتصبب عليهم، ومازال المرحاض حفرة في الأرض، ومازالوا بلا مطبخ ومازالوا فقراء للغاية وهم كثيراً ما يبقون جياعاً.

وسألت الأب، وهو لويس أونيزيم، ما الذي تغير منذ أن صورهم الفيلم؟

وقال: "لا شيء".

"أتذكر زوجتك في الفيلم، امرأة باهرة الطلعة، وكانت تطل من النافذة".

"ماتت بعد نوبة قلبية. كانت شابة. وفي الواقع، ماتت حزناً".

"كانت حزينة جداً؟"

"حزينة جداً حقاً. لقد كنا سعداء جداً في دييغو".

"هل تستطيع أن تصف شيئاً من حياتكم هناك؟"

"حسناً، لم نكن نحتاج إلى المال هناك. كنا نمتلك مقتنيات متواضعة، ولكننا امتلكنا كل ما احتجنا إليه. كانت زوجتي حزينة فقد فرض علينا أن نغادر ونترك كل شيء خلفنا، بالإضافة إلى حيواناتنا. لا بل لقد أمرونا بأن نسرع لأن السفينة كانت على وشك أن تغادر. فتخيل نفسك تركض خارجاً من المكان الذي ولدت فيه وترعرعت فيه، وأنت لا تدري أتراه ثانية أم لا؟"

"وهل تعاني أنت من الحزن الذي عانت منه زوجتك؟"

"نعم، إنني أعاني. فأنا قد تقدمت بي السن، وأسرتي فقيرة جداً إلى الدرجة التي يجب فيها على إحدى بناتي أن تدفع غرامة لأنها لا تستطيع بإمكانياتها أن ترسل أبناءها إلى المدرسة. إننا لا نأكل إلا الرز فقط وقطعاً من البابايا من تلك الشجرة هناك. ونحن نشتري الأوراق الخضراء حين يوجد بعضها في البقالة".

وسألت لويس وبناته: هل تلقيتم تعويضاً؟ إنهم يستطيعون أن يتذكروا أن بعض الديون قد سددت عنهم "منذ سنوات". وبدوا محتارين من السؤال.

في 14 من كانون الثاني/يناير من العام 2005، طار بل رامل أخيراً إلى بورت لويس، ليتفقد بيوت التشاغوسيين. ووصل مصحوباً بعدد كبير من الشرطة إلى مركز المجتمع في فندق بي دو تومبو في الساعة 7.30 صباحاً. وكان بانتظاره أعضاء من مجموعة لاجئي تشاغوس، ومساندهم، وقلة من المراسلين المحليين والأجانب. وقد طلب المسؤولون المرافقون للوزير من الشرطة أن يبقوا الصحافة في الخارج، وحرس الباب ضباط يحسنون استعمال عصا القيادة ببراعة. وقالوا: "لا آلات تصوير". وتجمع التشاغوسيون حول النوافذ الصغيرة ذات القضبان الحديدية الحاجزة لكي يشهدوا اللقاء الذي سيدوم عشرين دقيقة.

وافتتح رامل الاجتماع بالإعلان بأنه على الرغم من أنه كان يحبذ قيام التشاغوسيين بزيارة أرض وطنهم، فإن الحكومة الموريشيوسية لسوء الحظ قد منعت البريطانيين من التعاقد مع سفينة لتأخذهم. وبالنسبة إلى مستمعيه بدا ذلك مثل لعبة بنغ بونغ لندن – واشنطون.

وأجابه أوليفيير بانكولت: "أنت تقول يا سيد رامل إنك تساند زيارتنا وتمويلها، ولكن المشكلة الوحيدة هي السفينة. حسناً، نحن نملك سفينة". وسلم أوليفيير الوزير ملفاً عن السفينة، والتي كانت موجودة في دبي. وقال: "وهي جاهزة لتأخذنا إلى أرخبيل تشاغوس".

وقال رامل، وقد صدمته المفاجأة، إنه سيقوم "بالنظر" في الملف.* ثم غادر بعد ذلك على عجل ليزور البيوت التشاغوسية، وهو المكان الذي قالت الشرطة للصحافيين عنه إنهم ليسوا موضع ترحيب فيه. وبرز ليعلن أن اللاجئين عاشوا عيشة "لا تختلف" عن معيشة الموريشيوسيين، وقال إنه كان واضحاً أن فقرهم "ليس له مطلقاً" أي علاقة بنفيهم القسري. ثم إنه ساق سيارته مبتعداً، مصحوباً بالشرطة الراكبة المرافقة.

كان هناك سؤالان نجح مراسل مصمم على توجيههما حين مشى رامل بخطوات واسعة عبر المجتمع. كان الأول حول أمواج المد البركاني (التسونامي) الذي حدث في اليوم الأول بعد عيد الميلاد في العام 2004، والذي كان، وفقاً لما نشرته الغارديان، قد تم التنبؤ به بشكل دقيق من قبل القاعدة الأمريكية في دييغو غارسيا، ولكن هذه المعلومات الحيوية قد بقيت "أفضل سر احتفظ به في الأسطول الأمريكي". وأن أحد الأماكن القليلة في المحيط الهندي التي لم تصبها أمواج المد البركاني (التسونامي) كانت أرخبيل تشاغوس.

فإذا كانت دييغو غارسيا أرضاً بريطانية، فلماذا لم يتم مشاركة بقية العالم بهذه المعلومات، ألم يجعل رصيف أمواج المد البركاني الواسع التابع للجزر من التحذير الكارثي الذي ورد في "دراسة قابلية التطبيق" والجدوى التي أجرتها الحكومة البريطانية مهزأة؟"[77].

وكان السؤال الثاني عن تقرير في الواشنطون بوست، وهو تقرير يدعي أن دييغو غارسيا كانت جزءاً من معسكر اعتقال (غولاغ) أمريكا، وأن "المشتبه بهم من القاعدة" اعتقلوا في "معسكر العدالة" على أرض الجزيرة وعذبوا[78].

* في شهر نيسان/ابريل من العام 2006، سمحت الحكومة البريطانية لمائة واثنين من سكان الجزر بقيادة أوليفيير بانكولت، بأن يبحروا إلى تشاغوس في زيارة تحت السيطرة بشكل حازم لمدة اثني عشر يوماً. وبالنسبة إلى عودتهم الدائمة فقد قال وزير الخارجية جاك سترو: "إنها ليست عملية".(المؤلف)

دفع رامل السؤال الأول بالقول إنه سوف "ينظر فيه"، وأنكر في الحال بلا تحفظ أنه كان هناك سجناء على الأرض البريطانية. وقد كررت الواشنطون بوست الاتهامات[79].

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، يكون أوليفيير وليزيت ومواطنوهم قد وصلوا إلى لندن لحضور المراجعة القضائية التي طال انتظارها لاستخدام الحكومة الامتياز الملكي لوقفهم عن العودة إلى وطنهم. وهذه فرصتهم الأخيرة في المحاكم في بريطانيا. وستكون المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان هي الفرصة التالية. ويجري رفع قضيتهم على يد السير سيدني كينتريدج مستشار الملكة، ومدافع بارز عن حقوق الإنسان، وهو الذي مثل نلسون مانديلا وأسرة ستيف بيكو في بلده الأم جنوب إفريقية.

من الصعب أن أصف تصميم سكان الجزر على كسب العدالة والحرية. وهذا التصميم، ورفضهم أن يُلقى بهم بصفة ضحايا دائمين، راسخان في ذاكرتي. ولا أحتاج إلا إلى التفكير فقط في المأساة المنحوتة في وجه تشارليسيا وفي تعهدها وقولها "نحن نقاتل، ونقاتل!" والتفكير في أوليفيير وهو واقف على قبورإخوته وأخواته ويهمس "لا مزيد" ولا أحتاج إلا إلى الاستماع إلى أغنياتهم التي تنتابهم كأنها مسكونة بالأرواح، مثل "أفغانستان"، التي تحكي عن قاذفات القنابل التي انطلقت من جنتهم ضد رجال، ونساء، وأطفال مثلهم، ويستذكرون تعبيراتهم المتكررة عن كرمهم نحو البريطانيين، وهم يفصلون دائماً بين الناس العاديين وبين النخبة، ويستذكرون دفء الإنسانية الذي يأتي من الناس الذين عاشوا مثلما عاشوا هم في الماضي فقط والذين كان عليهم أن يكافحوا كفاحاً لا يكاد يحتمل تقريباً من أجل البقاء.

وفي آخر يوم لي معهم، أخذني أوليفيير، وليزيت، وتشارليسيا وريتا إلى نصب تذكاري يطل على ميناء بورت لويس يعلم المكان الذي هبطوا فيه إلى الشاطئ ويحيي ذكرى أولئك الذين ماتوا. وقد رمى كل واحد منهم وروداً على سوقها إلى الماء الزيتي. وذهبت في ذلك المساء مع تشارليسيا ومع أحفادها إلى شاطئ البحر.

كان الوقت غسقاً والشمس الملتهبة تهبط على أفق يقع خلفه أرخبيل تشاغوس. وتجمعوا كلهم معاً على الرمل واستمعوا إلى تشارليسيا وهي تغني:

حين كنت أعيش في دييغو، كنت كطائر جميل يحلق في كبد السماء.

ومنذ أن كنت هنا، فانا أعيش حياة بلا قيمة.

فأعطني يدك يا صديقي، فسوف نصرخ ونرسل رسالتنا إلى العالم بأن القاعدة العسكرية موجودة في محيطنا.

نعم، أنا أحمل الأحزان في قلبي.

انظر إلى طفلي الذي يكبر.

إنه لا يعرف أرض وطن أمه.

حين نبحث عن العدالة، فلا تضربنا، يا أيها السيد الشرطي.

حين كنت أعيش في دييغو، كنت كطائر جميل يحلق في كبد السماء.

* * *

obeikandl.com